

برنامج دراسة متون التوحيد وأصول الإيمان

شرح متن الأصول الستة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله

١٤٤٠/١/٢١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ مُحَّداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد:

فبين أيدينا رسالة قيّمة مختصرة للإمام المجدِّد شيخ الإسلام مُحَّد بن عبد الوهّاب رحمه الله ؛ جمع فيها أصولاً ستة عظيمة بُيّنت في كتاب الله عزّ وجلّ بيانًا وافيا ، وذُكرت لها الدلائل البينات والشواهد الواضحات في كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله ؛ بحيث كانت واضحة وضوحاً لا خفاء فيه، وظاهرة ظهوراً لا التباس فيه، ومع ذلك فقد ضلّ فيها أكثر الناس وانحرفوا فيها عن جادّة الصّواب وعن الطّريق السّويّة، وقد نصح هذا الإمام رحمه الله بجمعه هذه الرّسالة المشتملة على أصول ستة من أصول هذا الدين المبينة في الكتاب والسنة مشيراً إلى أهمّيتها وعظم شأنها ومنبِّهاً في الوقت نفسه على نوع الانحراف الذي وقع فيه أكثر النّاس فيما يتعلّق بهذه الأصول الستة .

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعجب العجاب وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بيَّنها الله تعالى بيانا واضحا للعوام فوق ما يظن الظانون ، ثم بعد هذا غلط فيه كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم إلا أقل القليل .

****

الشّيخ رحمه الله بدأ هذه الرِّسالة بذكر عظم شأن هذه الأصول السّتة، وأنّها قد بُيِّنتْ في كتاب الله عز وجل، وبُيِّنت في سنّة رسوله صلى الله عليه و سلم صلوات الله وسلامه عليه بياناً وافياً، وقد ذكر رحمه الله هذه الأصول وأشار في بداية حديثه عنها أنها أصولٌ ستّةٌ، وذِكره رحمه الله لهذا الرّقم في بداية حديثه عن هذه الأصول الستة نوع من الإعانة لطالب العلم على ضبط العلم ، فلو أنه ذكر هذه الأصول نثرًا دون إشارة إلى رقم يجمعها ربما ضعف ضبط طالب العلم لها، لكن إذا قرأها طالب العلم وعرف أنها ستّة استجمع ذهنه لضبطها؛ وهذا من هدي النبيّ في سنته عليه الصلاة والسلام؛ قال: ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ))، وقال: ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))، وقال: ((اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ))، وقال عليه الصلاة والسلام: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات)). فيأتي عنه عليه الصلاة والسلام مثل هذا كثير، فلا يذكر الأمور نثراً وإنّما يذكر لها رقم يحويها بحيث تُضبط المسائل المقصود بيانها والأصول

المقصود تقريرها وإيضاحها؛ ولهذا قال رحمه الله ستة أصول.

وقوله (أصول)؛ الأصل: هو ما يُبنى عليه غيره، وهو الأساس لغيره، وهذا تنبيه من المصنِّف رحمه الله إلى أنّ هذه من الأصول الكبار والقواعد الجوامع الكليّة. ومع أنها أصول وقواعد إلا أنه قد ضلّ فيها أكثر النّاس.

وبدأ رحمه الله هذه الرّسالة بالتّعجّب الشّديد الذي طرحه رحمه الله متعجبا وطرحه أيضا لطالب العلم ليشاركه في التعجب والتّأمّل في هذا الأمر؛ ولهذا بدأ الرسالة بقوله ((**من أعجب العجاب**)) أي من أشدّ الأمور إثارة للعجب في الأذهان.

((**وأكبر الآيات الدّالة على قدرة الملك الغلاّب**)) لاحظ الآن نبه على أمرين: نبّه على أنّ الأصول الآتي تقريرها مع مخالفة أكثر الناس لها رغم وضوحها تدلُّ على أمر عجيب جدّاً في حال النّاس وواقعهم. وتدلّ أيضاً في الوقت نفسه على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى.

((**على قدرة الملك الغلاّب**)) ؛ «الملك» : أي الذي بيده الملك ، المتصرِّف في هذا الكون عطاءً ومنعاً، خفضاً ورفعاً، قبضاً وبسطاً، يعزّ ويذل، ويخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع ، ويهدي ويضل. الذي يتأمل هذه الأصول الستة وواقع الناس معها تدله على كمال قدرة الملك الغلاب ؛ «الغلاّب» كما قال الله تعالى: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١] ، غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ : أي حكمه نافذ، لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه، يتصرّف في مملكته وفي مخلوقاته كيف شاء، ويدبّرها تبارك وتعالى كما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له، {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ } [فاطر: ٢]. فالأمر بيده تبارك وتعالى . ومن الدّلائل على أنّ الأمر بيده هذه الأصول السّتة واضحة وبيّنة وضوح الشّمس، ومع ذلك يضلّ أكثر النّاس فيها عن سواء السّبيل وينحرفون عن الجادّة السّويّة؛ فهذا أمر مدعاة للتعجب الشّديد، وفي الوقت نفسه فيه دلالة على قدرة الله وكمال ملكه، وأنّه سبحانه وتعالى غالب على أمره، وأن حكمه نافذ وأن الأمور بيده تبارك وتعالى ، يحكم في خلقه بما يشاء ويقضي فيهم بما يريد ، لا معقب لحكهم ولا راد لقضائه تبارك وتعالى .

قال: ((**وأكبر الآيات الدّالة على قدرة الملك الغلاّب ستة أصول بيّنها الله تعالى بياناً واضحاً للعوام فوق ما يظن الظّانون**)) انظر هنا إلى تأكيد المصنِّف رحمه الله على وضوح هذه الأصول السّتة، ووضوح بيانها في كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه صلى الله عليه و سلم ؛ قال: ((بيّنها الله بياناً واضحاً)) أي جعلها أموراً بيّنة ليستْ ملتبسة، واضحة أي ظاهرة لكلّ أحد ، ليس فيها خفاء ولا يكترثها غموض، ولا يلابسها تعقيد، بل هي واضحة ظاهرة في كتاب الله عزّ وجلّ، وكذلك في سنّة نبيّه صلى الله عليه و سلم.

((**بياناً واضحاً للعوام**)) أي أن وضوح هذه ليس أمراً مختصّاً بأهل العلم أو بالرّاسخين في العلم بل هي

واضحة للعوام ؛ فضلاً عمن هو أرفع منهم وأعلم منهم وأفقه منهم، واضحة للعوام تماماً ((**فوق ما يظنه الظانون**)) يعني وضوحها فوق ما قد يُظنّ، قد يظنها الإنسان واضحة لكن وضوحها القوي الظاهر البين فوق ما يظنه الظانون ، ومتى يظهر هذا المعنى الذي قاله الشّيخ رحمه الله؟ عندما يتأمّل المسلم أنواع الأدلة الواردة في الكتاب والسنة في تقرير هذه الأصول ، وأنها أقيمت عليها الحجج البيّنات بأنواع من الأدلة ؛ بحيث أن هذا البيان لهذه الأصول فوق ما قد يُظنّ ، لا من حيث تنوّع الأدلة، ولا من حيث أيضا كثرة عددها.

الأصل الأول الذي سيأتي الحديث عنه قال ابن القيم رحمه الله إن عامة آيات القرآن في تقريره ؛ الذي هو الإخلاص والتحذير من الشرك قال بل كل آية في القرآن فيها تقرير للتوحيد ، فالشاهد أن هذه الأصول بينت بيانا واضحا لا خفاء فيه ، ليس هذا البيان لأهل العلم أو للراسخين في العلم بل للعوام بحيث يفهمها كل من يفهم اللسان العربي الذي أنزل به القرآن الكريم

((**ثم بعد هذا كله غلط فيها كثير من أذكياء العالم**)) أي رغم وضوحها الشديد وبيانها البين وكونها لا خفاء فيها ولا التباس ؛ مع ذلك كله غلط كثير من أذكياء العالم ، هنا قوله: ((غلط فيها)) هنا العجب ، وهنا ظهور الآية التي قال: ((آيات دالة على قدرة الملك)) ، فهنا العجب ، تعجب غاية العجب عندما يكون هناك طريق يوصل إلى البلد المقصود، واللوحات الإرشاديّة للطريق كثيرة جدّاً، كلّ ما تمشي خطوتين تجد لوحة إرشاديّة. طريق مكة وسهم يشير إليه، ثم تمضي والطريق أيضاً تجد السهم يشير، ثم تمضي وتجد السهم يشير ، ثم في الوقت نفسه تجد كثيراً من الناس يريدون مكة ولكنهم يأخذون ذات اليمين وذات الشمال يضيعون ويضلون وينحرفون!! هذا أمر في غاية العجب؛ لأنّك إذا تأمّلت وضوح الطّريق وكثرة اللّوحات الإرشادية الدالة عليه ثم نظرت أكثر النّاس ينحرفون عنه، ثم تتساءل تقول: هل الطريق غير واضح؟ ستقول لك نفسك: وهل أوضح من هذا؟ هل أزيَد من هذا الوضوح؟ ما أمشي خطوة أو خطوتين إلا وأجد لوحة إرشادية تدل وتوضح ؛ فهذا أمر في غاية العجب ،كثرة الدلائل والحجج والبراهين، ثم في الوقت نفسه كثرة المنحرفين والزائغين والضّالين ، فهذا أمر فيه مثار للعجب والتعجب، وفيه أيضاً دلالة على أنّ الأمور بيد الله سبحانه وتعالى. الأمور بيد الله، الهداية بيد الله، الاستقامة بيد الله، صلاح العبد بيد الله، توفيقه بيد الله، سلوكه للطريق القويم بيد الله، كلّ الأمور بيده تبارك وتعالى ، وقد سُئل أعرابيٌّ قيل له: بما عرفتَ ربَّك؟ قال: "بنقض العزائم وحل الهمم" ؛ عرفتُ ربّي بهذا، أنّ عزمي على شيء أو همّتي على أمر من الأمور تنتقض، وأتجه إلى غيره وأنا عازم إلى أمر معين وإذا بي أتوجه إلى آخر ، فهذا يدل على أنّ الأمور بيد الله تبارك وتعالى. وليس هذا معناه أن العبد لا مشيئة له ولا اختيار، بل للعبد مشيئة يدل عليها النّصوص في كتاب الله وسنة نبيّه عليه الصّلاة والسّلام ويدل عليها واقع الإنسان ، لو تأمّل الإنسان واقعه

وحياته وأموره يجد أن عنده مشيئة واضحة، عنده مشيئة يختار بها طريق الخير وطريق الشّر ، ومشيئة تحت مشيئة الله قال تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٨ – ٢٩].

قال: ((**غلط فيها كثير من أذكياء العالم**)) وهذا فيه دلالة على أنّ الذّكاء وحده لا يكفي العبد في استقامة أموره وصلاح أحواله، فكم ممن ذكاؤهم مفرط وذهنهم وقّاد وفهمهم قويّ لكنّهم يضلون {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧]. تجده في غاية الذّكاء ذكاؤه خارق ذكاء قوي جدا، لكن أهمّ أمر خُلق لأجله ووُجد لتحقيقه ليس عنده منه خبر ، بل تُعرض عليه حجج واضحات ودلائل مقنعات فيرفضها ويأباها ولا يقبلها ! لا لكونه لا يفهم ، بل هو ذكي يفهم أمور دقيقة وأمور عسرة الفهم تجده يفهمها، ثم يُعرض عليه أبين الأمور وأوضحها فلا يفهمها ولا تقبلها نفسه وتأبى قبولها.

قال: ((**ومع ذلك غلط فيها كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم**)) وهؤلاء الذين وصفهم الشيخ رحمه الله بالذّكاء هم في الحقيقة أوتوا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «أوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً، وأوتوا فهوماً ولم يؤتوا علوماً» ؛ فما أغنى عنهم ذكاؤهم ولا أغنت عنهم عقولهم ولا انتفعوا بها، وإذا كان عنده انتفاع بعقله فانتفاعه به محمود ينتهي بموته وليس لعقله ثمرة بعد موته؛ ولهذا يندم أهل النار غاية النّدم لعدم استعمالهم لعقولهم فيما خُلقت له وأُوجِدتْ لتحقيقه ويقولون نادمين: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [الملك:١٠]. لكن فساد العقل وانحرافه يفضي بالإنسان إلى هذا الزّلل.

قال: ((**إلاّ أقل القليل**)) أي أنّ أكثر النّاس ضلوا في هذا الباب، قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]. وقال: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣] ، وقال: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦] والآيات في هذا المعنى كثيرة. فأقل القليل هم الذين هُدوا إلى صراط الله المستقيم واستقاموا على الجادة السوية، وأكثر الناس ضلّوا عن سواء السّبيل.

والمؤلف رحمه الله قصد بهذه المقدمة أن ينبّه طالب العلم على أهمية هذه الأصول الستة وعظيم مكانتها – هذا من جهة– وأن ينبه طالب العلم على ضرورة إقباله الصّادق على الله تبارك وتعالى أن يهديه وأن يثبّت قلبه وأن لا يزيغه عن سواء الصراط، ومن دعوات النبيّ صلى الله عليه و سلم : ((يا مقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك))، ومن دعواته أيضاً: ((اللهم لك أسلمتُ وبك آمنتُ وعليك توكّلتُ وإليك أنبتُ، وبك خاصمت، أعوذ بعزّتك، لا إله إلاّ أنت أن تضلّني، فأنت الحيّ الذي لا يموت، والجنّ والإنس يموتون)).

وأراد أيضا أن ينبّه على ضرورة العناية بهذه المسائل والعناية بضبطها وإتقانها، وأراد أن ينبه أن الذّكاء وحده لا يكفي إذا لم يُرزق صاحبه السّداد والتوفيق من الله تبارك وتعالى، فلا يغتر الإنسان بما عنده من ذكاء وما لديه من نباهة ، فكم من ذكي لم ينتفع بذكائه ولم يستفد منه، وأراد أن ينبّه أيضاً على خطورة الشّبهات

وأنها تُضر بالناس غاية الضّرر لأنها تقلِب الحقائق وتخلط الأوراق وتُردي بالناس وتُخل بالعقول وتفسد الأذهان، فالشبهات غاية في الخطورة، وإذا أصغى الإنسان للشبهة وأعطاها سمعه أضرّت بعقيدته ، أضرّت بعبادته، أضرّت بصلته بربّه تبارك وتعالى. فهنا تنبيه من المصنّف لطالب العلم ألاّ يخاطر بدينه بسماعه للشبهات ومطالعته لها؛ لأنّ الشبهات خطيرة جدّاً وصاحب البدعة ملقنٌ حجته كما قال السلف رحمهم الله؛ أي يشبّه على الناس ويلبّس عليهم، فمن أرخى لنفسه العِنان في سماع الشبهات والإصغاء إليها أفسدتْ قلبه، ولا يقول الإنسان في هذا المقام: أنا عندي ذكاء وعندي عقل أميّز ولا تضرّني، فقد كان أئمّة السّلف وعلماء السنة رحمهم الله آتاهم الله عز وجل من العلم والفهم والذّكاء وما كانوا يصغون إلى مجادِل ولا يصغون لأرباب الشبهات وأهل الأهواء ولا يتيحون لهم الحديث في مجالسهم، حتى ولا نصف كلمة كما جاء عن بعضهم ، كل ذلك حفظا للدين ومحافظة عليه وصيانة له من الزلل، فهذه كلّها أمور ينبه عليها المصنّف رحمه الله بين يدي ذكره لهذه الأصول الستة العظيمة .

قال رحمه الله تعالى :

الأصل الأول:إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له ، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة ، ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم ، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم .

****

قال رحمه الله : ((**الأصل الأوّل: إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له**)) بدأ هذه الأصول بهذا الأصل العظيم لأنه أصل الأصول وبقية الأصول تبع له، واكتسبت أهميتها من جهتين : لأنها أصول تعين على تحقيق هذا الأصل ، فالمقصود أصالة هذا الأصل، وهو الغاية التي خُلق الناس لأجلها وأوجدوا لتحقيقها ، ثم الأصول الآتية هي أصول من جهة أنها معينة على تحقيق هذا الأصل الذي هو الإخلاص لله تبارك وتعالى.

((**إخلاص الدّين لله**)) ومعنى الإخلاص لله تبارك وتعالى : أي أن يأتي العبد بالدّين خالصاً لله جل وعلا ، أي نقياً صافيا لم يجعل مع الله تبارك وتعالى فيه شريك؛ لأنّ معنى الخالص في لغة العرب: أي الصافي النّقي ، ما لا شائبة فيه تكدره. ويوضح لنا معنى الإخلاص من حيث اللغة قول الله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ }[النحل: ٦٦]. فقوله {لَبَنًا

خَالِصًا} وصف اللّبن بأنه خالص، والمعنى أي صافي نقي، وأخبر تبارك وتعالى أن هذا اللّبن الخالص قد خرج من بين فرث ودم ،حتى قال بعض أهل الخبرة: إنّ خروجه من بين الفرث والدّم يكون عند الحلب وفي وقته. ومن الدّلائل على ذلك من حيث الواقع أنّ الناقة على سبيل المثال إذا أراد صاحبها حلبها يأتي إلى ثديها فيحلب لا يجد حليباً، فإذا قرَّب ولدها منها ونظرت إلى ولدها عند ضرعها أدرّت الحليب ثم حلب ، فيحلب من جهة وولدها يرضع من جهة أخرى ، يخرج الحليب من بين فرث ودم صفته خالص، ومعنى خالص: أي لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث وهو للتو خرج من بين الفرث والدم ولا ترى فيه قطرة دم ولا قطعة دم ، صافي مصفّى نقي منقّى، أخرجه الله تعالى بهذه الصفة خالصاً ، ثم جعله أيضاً سبحانه وتعالى سائغاً ، مع علم الإنسان بمخرجه لكنه يستسيغه ويستلذه ويرى له طعمًا لذيذاً مع علمه من أين خرج. الشّاهد قوله: { خَالِصًا } أي صافيا نقيّاً، فالخالص: هو الصّافي النّقي الذي لا شائبة فيه، فاللّبن لما لم يكن فيه نقطة دم وقطعة فرث خرج صافيا سمي بهذا الاسم أو وصف بهذا الوصف «خالصاً» أي صافيا نقيّا.

وقول الله تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [البينة:٥]، وقوله: { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: ٣] المعنى: أي الصّافي النقي. ما الدّين الخالص؟ هو الدّين الصافي النقي الذي لم يقصد به إلا الله، لم يُتقرّب به إلا لله، فإذا دخل نية العبد في دينه وفي قرباته سوى الله جلّ وعلا، وقصد التقرّب إليه خرج من الإخلاص لأنه لم يصبح صافياً ، ولهذا كان الشّرك: عدل غير الله تبارك وتعالى بالله ، فالمشرك خرج من الإخلاص لأنه عدل غير الله بالله وسوَّى غيره تبارك وتعالى به في إعطاء غير الله من حق الله وتبارك وتعالى وخصائصه سبحانه ، وهذا نقيض الإخلاص، الشّرك نقيض الإخلاص.

ولهذا يمكن أن نعرِّف الإخلاص بمعناه بحيث نقول: الإخلاص هو الدّين الصافي النقي الذي لم يرد به إلاّ الله .

ويمكن أن نعرفه بنفي ضده، فنقول: الإخلاص هو الذي لا شرك فيه.

والشرك نوعان: نوعٌ ينافي التوحيد من أصله، ونوعٌ ينافي كماله الواجب.

- ❖ نوع ينافي التوحيد من أصله وهو الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام ؛ وهو تسوية غير الله بالله تبارك وتعالى فيما هو من خصائصه تبارك وتعالى. والشرك يقع في أنواع التوحيد الثلاثة: الشرك في الربوبيّة، والشرك في الألوهية، والشرك في الأسماء والصفات، فإعطاء غير الله شيئًا من خصائص الله في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، هذا شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام، والمعترك بين الأنبياء وأقوامهم هو في شرك العبادة، ما يتعلق بالإقرار بربوبية الله الغالب يقرّون بأنه الرب الخالق الرازق ، ومن أنكر منهم أنكر على وجه المعاندة والاستكبار كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}[النمل:١٤] ، {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الإسراء: ١٠٢]. فغالب جحد من جحد

عن استكبارٍ ومعاندة ، والمعترك في هذا الباب بين الأنبياء وأقوامهم في باب العبادة وإخلاصها لله تبارك وتعالى وعدم جعل الشريك معه فيها.

❖ والنوع الثاني: الشرك الأصغر: وهو كل ما جاء في النصوص وصفه شركاً ولم يصل إلى رتبة الشّرك الأكبر الناقل من الملة ؛كيسير الرياء ،وكشرك الألفاظ، مثل حلف الإنسان بغير الله ، وقوله ما شاء الله وشئت، وقوله لولا البط لأتانا اللصوص ، ونحو ذلك من الألفاظ الشركية التي يصدر من الإنسان لفظها ولا يعتقد حقيقتها ومضمونها من تسوية لغير الله تبارك وتعالى بالله.

قال: ((**الأصل الأوّل: إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له**)) إخلاص الدّين لله أي إخلاص تدين العبد لله وتدينه وتقربه لله بالأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات. إخلاص الدّين لله: أي لا لغيره ؛ بأن يقع العمل من العامل مبتغياً به وجه الله سبحانه وتعالى ، لا يريد به إلاّ الله والتّقرّب إليه ونيل رضاه سبحانه وتعالى .

((**إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له**)) منبّهاً المصنف رحمه الله بهذا إلى أنّ الإخلاص له ركنان لا يكون إلا بهما ؛ وهما: الإثبات والنّفي. الإثبات في قوله: «وحده»، والنفي في قوله «لا شريك له» فلا يكون العبد مخلصاً إلاّ بالنّفي والإثبات وهما ركنا التوحيد، والإخلاص قائم على ركنين الإثبات والنفي ، إثبات العبادة بكل معانيها لله وحده ونفيها عمّن كل من سواه كما هو واضح في كلمة التوحيد «لا إله إلاّ الله» فإنّها قائمة على هذين الركنين: النفي والإثبات، نفي عام في أولها وإثبات خاص في آخرها. ((لا إله)) نفي للعبودية عن كل من سوى الله، و((إلاّ الله)) إثبات للعبوديّة بكل معناها لله تبارك وتعالى وحده . فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحِّداً، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحِّداً، بل لا يكون من أهل التوحيد إلاّ بالنّفي والإثبات، من نفى بدون إثبات قال «لا إله» واكتفى بهذه الكلمة دون أن يثبت الألوهيّة لله بعد نفيها عمّن سواه فإن هذا إلحاد، قوله هذا إلحاد ، وعقيدة الملاحدة: "لا إله والحياة مادة" نفيٌ لوجود الإله أصلاً. ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحِّداً من قال: أنا أؤمن بأن الله معبود ولكن لا أنفي العبودية عمن سواه ؛ هذا لا يكون موحِّداً بل هو مشرك.

فالتوحيد لا يكون إلاّ بالأمرين معاً : النفي والإثبات: «لا إله إلا الله».وقوله: ((**وحده لا شريك له**)) هذا تأكيد لركني التوحيد، أكّد الإثبات بقوله: ((وحده)) وأكّد النفي بقوله: ((لا شريك له)).

قال: ((**الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له وبيان ضده الذي هو الشرك بالله**)).

يقول المصنف: الإخلاص بين في القرآن وضده أيضاً حُذّر منه. الإخلاص بُين ورغب فيه، والشرك بين وحذّر منه في القرآن، وتنوعّت الدّلائل في القرآن في بيان الشرك وبيان خطورته والتحذير منه وسوء عاقبته على أهله ، وتمر في القرآن على آيات كثيرة فيها ذكر الشّرك والتحذير منه وذمّ المشركين والتحذير منهم،

ولو أنك رجعت إلى بعض المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن عند كلمة (شرك) وتصريفاتها تجدها وردت في القرآن وروداً في مواضع كثيرة جداً ؛ ذمّا له وتحذيراً من أهله وبياناً لسوء عواقبهم في الدنيا والآخرة ، يمر عليك في هذا الباب آيات كثيرة جداً في القرآن الكريم ، هذا ما كان منها بلفظ (شرك) ، لكن أيضاً لو نظرت إلى الألفاظ الأخرى (ومن يدعو مع الله) هذا أيضاً تحذير من الشّرك ولو لم تذكر الكلمة نفسها {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا }[الإسراء:٥٦] ، {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} [فاطر: ١٣] كلّ هذا ذمٌ للشِّرك {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام:١] ، {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ }[الشعراء: ٩٧ – ٩٨] هذا كلّه ذمٌّ للشّرك، فالشّرك ذُمَّ في القرآن بذكره بلفظه، وذُكر أيضاً بألفاظ ومعاني وتقريرات أخرى، فبُيّن بياناً وافيا واسعاً شافيا كافياً في كتاب الله عزّ وجلّ.

قال: ((**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى**)) ؛ القرآن أكثره في بيان هذا الأصل من وجوه شتى، هذه الكلمة تفتح لك باباً شريفاً من العلم وأنت تقرأ القرآن، أعظم الأمور المبيّنة في القرآن ما هو ؟ التوحيد والتحذير من ضدّه وهو الشّرك، وبُيّن في القرآن بياناً شافياً يفهمه أبلد العامة، لم يكتفِ بقوله: يفهمه العامة. يفهمه أبلد العامة واضح جداً ، وبأنواع من الأدلة ؛ فهذا يفتح لك باباً شريفاً من العلم وأنت تقرأ القرآن بحيث تنتبه للآيات التي تقرِّر التوحيد وتحذّر من الشّرك ؛ تنتبه لها وتفهمها لأنها أعظم شيء في القرآن ، أعظم شيء في القرآن الكريم آيات التوحيد والآيات التي تحذّر من الشرك؛ فكيف يليق بمسلم عاقل يمر عليها ولا يدري ما هي؟! ولا يفهم منها معنى ، أو يتجاهل عن معناها ، أو يعرض عن فهم معناها ، أو يرتكب المسلك الذي يرتكبه من ضلُّوا عن سواء السبيل بالصّد عن تدبّر القرآن – وهذا سيأتي الكلام عليه عند المصنّف– صدّ النّاس عن تدبّر القرآن وفهم آياته ، وبعض العوام إذا ذُكر له آيات التوحيد والتحذير من الشّرك يقول: "هذه آيات من القرآن، وفهم القرآن ليس لكل أحد" هكذا يقول! "هذه آيات من القرآن، وفهم القرآن ليس لكل أحد ، وإنما فهم القرآن خاص بالمجتهدين، والمجتهد صفته كذا وكذا ، ونحن لا نفهم ولا يجوز لنا أن نحاول أن نفهم" ، هكذا لُبّس على كثير منهم أصبح يقرأ آيات التوحيد والآيات المحذّرة من الشرك ولا يحاول أن يفهم منها شيء ، ويبقى فهمه على ضوء ما قرّر له أشياخُه.

وقد مرّ معي في بعض الكتب قصّة جميلة في هذا الباب: أحد الذين منَّ الله عليهم بفهم التوحيد جلس مع رجل من العوام ثم وجده وقع في أمر شركي فنهاه عن الشرك وتلا عليه آية من القرآن . والآيات التي في القرآن في التحذير من الشرك كثيرة . فتلا عليه آية إما قول الله تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ }[النساء:٤٨] ، أو { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ }[الأحقاف:٥]. تلا عليه آيةً في التحذير من الشّرك، فقال له ذلك الرجل: لمَ تذكر لنا آيات القرآن؟

ولماذا أيضاً تستشهد بالقرآن وأنت لست من أهل الاجتهاد؟ القرآن والاستدلال وذكر الشواهد منه هذا لأهل الاجتهاد وأنت لست من أهله ، ومثلي ومثلك لا يمكن أن نذكر الآيات ونستدل بها، فردّ كلامه بهذه الطريقة ، فالرجل سكت ولم يتكلّم معه، ثم انتظر بعد قليل وكانوا في بيت ذلك الرجل، فجاءت ابنةٌ صغيرة لذلك الرجل قال له هذا الرجل: من هذه؟ قال: هذه ابنتي عمرها ست أو سبع سنوات. قال: لماذا لا تتزوجها؟! قال: اتقِ الله! هذه بنتي، كيف تقول هذا الكلام؟! قال: لماذا لا تتزوّجها؟ إيش المانع؟! فغضب الرجل، قال: ما سمعتَ قول الله تعالى:{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ} [النساء: ٢٣].قال له : لا، هذا قرآن!.

فلاحظ الآن صاحب الهوى لما يؤتى له بالدّليل الذي يرد هواه وباطله يمتنع بهذه الشبهة، لكن إذا تحدّث في الأمور الأخرى التي يرتضيها تجده يستدل بالقرآن، إذا قرئتْ عليه آيات الشرك ردّها بطرق عديدة، وإذا تليت عليه آيات في الأخلاق أو في الآداب أو في المعاملات أو في أمور أخرى يتقبلها، أما آيات الشرك فلِما قام في قلبه من الشبهة التي صرفته عن التوحيد وجرفته عنه يمتنع من قبول الآيات . ودعاة الضلال وضعوا في هذا الباب قاعدة سيأتي ذكرها عند المصنّف والتنبيه على خطورتها في أصل قادم. قال: ((**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة**))

((**ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار**)) مراده بقوله «صار أكثر الأمة ما صار» أي من الجهل بالدين ودروس العلم وقلة الفهم بكلام الله وكلام رسوله عليه الصّلاة والسلام وتكاثر الشبهات على الناس ((**لما صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشّيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم**)) انظر إلى مكر الشيطان بهؤلاء ؛ أظهر لهم الإخلاص في صورة تنقص الصالحين، وأنّ المخلص الذي لا يريد أن يُقصد بالعمل إلا الله تبارك وتعالى يقولون في حقّه هذا لا يعرف قيمة الصالحين، ولا يعرف مكانتهم، ولا يعرف جاههم، ولا يعرف فضلهم، وليس عنده للصالحين قدر، وربما قالوا: هذا لا يحب الصالحين، وربما ارتقوا أيضاً وقالوا: هذا يشتم الصالحين ويسبّ الصالحين، وهكذا يأتي ركام من الكلام الباطل الذي هو من مكر الشيطان بهؤلاء .

قال: ((**أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقهم**)) بمعنى: أن الذي لا يذهب إلى القبر متوجّهاً إلى صاحبه ملتجئاً إليه باكيًا بين يديه متذلّلا منكسراً بزعمهم من لا يفعل ذلك لم يعرف قيمة هذا الصالح، وأصبحت معرفة مكانته ومعرفة قدره عند هؤلاء ارتبطت بماذا؟ بالشرك ، فلا يعرف قدر الصالح إلا من جعله شريكاً لله، هذا بزعمهم. أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقهم؛ من لا يستنجد بهم، من لا يستغيث بهم، من لا يذبح لهم، من لا ينذر لهم، من لا يصرف لهم من أنواع العبادة هذا يتنقصهم ولا يعرف أقدارهم ، هذا بزعم هؤلاء الذين مكر بهم

الشيطان.
أيضا ((**وأظهر لهم الشرك في صورة محبة الصالحين واتباعهم**)) بمعنى : أن الذي يقوى فيه التقرب إلى الصالحين بما لا يُتقرب به إلاّ إلى الله سبحانه وتعالى، هذا محبٌ لهم وعرف قدرهم ، وأما من سواه فهو لا يعرف قدر الصالحين ولا يحب الصالحين ، بهذا المكر ضل أكثر الناس عن سواء السبيل ، مع أنه لا ارتباط بين الأمرين ! باب الإخلاص هذا حقّ لربّ العالمين ، ومحبّة الصّالحين ومعرفة أقدارهم لا يرتبط بها لا من قريب ولا من بعيد إعطاؤهم شيء من خصائص الله ، ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام مع بيانه للتوحيد سدّ كل المنافذ التي تفضي إلى الشرك ، سمع رجلاً يقول: "ما شاء الله وشئتَ" قال: ((أجعلتني لله ندّا، بل ما شاء الله وحده)). ولما جيء بذاك الأسير إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام فقال: "إني أتوب إلى الله، ولا أتوب إلى مُحَّد". قال عليه الصلاة والسلام: ((عرف الحقَّ لأهله)). ولما جاء ذاك الوفد إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالوا: "أنت سيدنا وابن سيدنا" قال: ((قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينّكم الشيطان)) ، وقال: ((إني لا أحبُّ أن تنزلوني فوق منزلتي التي أنزلني الله إياها))، وقال عليه الصلاة والسلام: ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله))، وقال وهو في النزع عليه الصلاة والسلام: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إنّ شرار الخلق عند الله يوم القيامة الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد)). وجاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة جدّاً، لما سمع المرأة تنشد وتقول: "فينا رسول الله يعلم ما في غد" غضب وقال: ((لا يعلم ما في غد إلا الله)). فهو عليه الصلاة والسلام بيّن التوحيد وحذّر من الشّرك وحمى حِمى التوحيد وسدّ الذّرائع التي تفضي بالناس إلى الشرك ، {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨] . بيَّن عليه الصّلاة والسلام البيان الوافي، ومع هذا البيان ووضوح هذا الأمر وجلائه وعدم خفائه إلا أنّ أكثر الناس ضلُّوا في هذا الباب عن سواء السبيل ؛ بسبب الشبهات ، وبسبب مكر الشيطان بهؤلاء، وبسبب إصغائهم لدعاة الضّلال والباطل ، وبسبب أيضاً نشأتهم في مجتمعات لا يسمعون فيها إلا صوت أهل الشبهات، يعني بعض العوام نشأ في مجتمعات ليس فيها إلا صوت أهل الشبهات، لا يسمعون صوت من يدعوه إلى التوحيد.
ولا أنسى قصةً مرّت عليَّ مع شخصٍ كان جالساً إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات ليست قليلة، وكنت أقرأ القرآن وكان مادًّا يديه يدعو، ثم ازداد في اجتهاده بالدّعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه وهو يبكي ؛ فأثّر فيَّ خشوعه، ثم رفع صوته قليلا في دعائه فإذا به يقول في دعائه: "يا رسول الله" يبكي وخاشع ومتذلل يقول في دعائه: "يا رسول الله" ويعرض حاجاته ، باكياً خاشعاً متذلّلا ويعرض حاجته يا رسول الله عليه الصلاة والسلام مستغيثاً مستنجداً، فتحدثت معه طويلاً ، بدأت حديثي معه أولا بسؤاله عن صحته وعن بلده وعن أولاده وعن سفره وعن أمور عديدة، ثم لما اطمأن للحديث معي انتقلت

إلى جانب آخر وهو أهمية الدعاء، وقلت له: الدعاء عظيم ومكانته في الدين عظيمة وأخذت أسوق له آيات وأحاديث عديدة في فضل الدعاء ، ففرح بها لأنه كان يدعو، وأخذت أذكر له آيات وأحاديث في فضل الدّعاء ومكانة الدعاء، ثم التفت إليَّ وأنا أحدثه عن فضل الدعاء ومكانته ، وكأن الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويبكي يريد من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكشفها عنه ويجلّيها، فأخذت أذكر له آيات في فضل الدعاء، ثم انتقلت إلى حديث آخر أبيّن فيه أنّ الدعاء حقٌّ لله سبحانه وتعالى، وقلت له هذه مسألة بُيّنتْ في القرآن بياناً واضحاً لا خفاء فيه، وأخذت أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٣ – ١٤] وقوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا }[الإسراء: ٥٦] ، وقوله:{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ } [سبأ:٢٢]، وقوله تعالى:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأحقاف: ٥] . وآيات في هذا المعنى عديدة، ثم انتقلت إلى السنة وبدأتُ أذكر له أحاديث ، وكل ذلك وهو يصغي إليَّ، ثم ذكرت له أمثلة من أدعية النبيّ عليه الصلاة والسلام، قلت له: كان إذا أوتي له بمريض كما في حديث عائشة قال: ((اللّهم ربّ النّاس اذهب البأس واشف أنت الشافي))، وكان إذا خرج عليه الصلاة والسلام من بيته قال: ((اللهم إني أعوذ بك أن أضلّ أو أُضلّ، أو أزلّ أو أُزلّ))، وكان إذا وضع جنبه على فراشه قال: ((اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجّهت وجي إليك))، وذكرت له نماذج واضحة لا لبس فيها يفهمها العامي فضلا عن غيره ، انتهيت وهو يسمع بكل إصغاء وإنصات . فلما انتهيت أحببتُ أن أطمئن هل الرجل فهم أو لم يفهم؟ هل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحتُ عليه سؤالاً ، السؤال في حدّ ذاته خاطئ لكني قصدته من أجل الاطمئنان ، لما انتهيت قلت له: ما رأيك في هذا الكلام؟ فقال لي كلمة عجيبة ذكّرتني بكلمة للإمام الشافعي رحمه الله ، قال لي كلمة عجيبة! قال لي: "تقول لي ما رأيك؟ وأنت تقرأ عليَّ أيات وأحاديث؟!" هذه ذكّرتني بكلمة للشافعي رحمه الله؛ سئل مرة عن مسألة فأجاب فيها بحديث، فقال له السائل: وما رأيك؟ فغضب رحمه الله قال: «هل رأيتني معلقاً الصليب على صدري؟ هل رأيت زجاجة الخمر في يدي؟ أقول لك: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم، وتقول: ما رأيك؟ » يعني هذا الكلام ما يليق.

فالرجل قال لي: "تقول لي ما رأيك؟ وأنت تقرأ عليَّ أيات وأحاديث؟!" فأعدتُ عليه السؤال نفسه، قلت: نعم لازلتُ عند سؤالي: ما رأيك؟ لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا ، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل أنت هذه الآيات استوعبتها وقبِلتها؟ أم أن لك رأياً آخر خلاف هذه الآيات؟ فقال لي كلمة أخرى أعجب من الأولى! قال لي: أنا من بلد كذا وكذا ـ سمى لي بلده ـ ما أحد قال لي الكلام هذا! كلمة قويّة ،

قال " أنا من بلد كذا وكذا ما أحد قال لي الكلام هذا!" ماذا تعني هذه الكلمة؟ كلمة مؤلمة تعني أنه مسكين نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات في هذا الباب، وإذا حضر درساً أيضاً عُرضت عليه شبهات في هذا الباب، وإذا قرأ كتابا في الكتب التي حوله تعرض عليه شبهات في هذا الباب، ثم ينشأ ويكبر ويكبر ولا يسمع إلا الشبهات ، وآيات التوحيد التي هي واضحة حُجب عنها وغُيِّبت عنه ، وأيضا حُذِّر من فهمها بقواعد، وسيأتي كلام المصنف لاحقاً عن هذا الأمر .

فهذا أصل الأصول وأعظمها ، وبُيّن في القرآن بياناً وافياً يفهمه أبلد العامة ؛ ومع ذلك ضلّ فيه أكثر الناس !

قال شيخ الإسلام مُحَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصل الثاني : أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبيَّن الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام ، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا ، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرّق فيه ، ويزيده وضوحاً ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك ، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين ، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق مجنون.

****

قال المصنف رحمه الله ((**الأصل الثاني : أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبيَّن الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام ، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا**)) هذا الأصل من الأصول العظيمة المبينة بياناً وافياً شافياً في كتاب الله عزّ وجل وفي سنة نبيه صلى الله عليه و سلم، وقد تكاثرت النصوص في ذلك وتضافرت في تقريره والدعوة إلى الاجتماع والنهي عن الافتراق، قال الله عزّ وجل: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}[الأنعام:١٥٩] ، وقال: { وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[الأنفال: ٤٦] ، وقال جل وعلا: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣] ، وقال جلّ وعلا: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]؛ قوله: «لا تتفرّقوا في الدّين» أي اجتمعوا عليه ولا يتخذ كلٌّ لنفسه منهاجاً وطريقاً فتتفرّقون في الدّين كلّ له رأي وكل له قول وكلّ له وجهة ، وإنّما المطلوب من أهل الإيمان أن يجتمعوا على دين واحد وهو دين الله عزّ وجلّ ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ، وأن يطَّرحوا التّفرّق والشّقاق والتّدابر والتباغض والتّعادي فإنّ ذلك لا خير فيه، والخير في الاجتماع والرحمة في الاجتماع ، وقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه و سلم أنه قال: ((الاجتماع رحمة والفرقة عذاب))؛ الاجتماع رحمة للأمّة ، يجتمعون على دين الله وعلى كتاب الله وعلى كلمة سواء وعلى تناصح وتعاون

وتعاطف وتراحم ، محقّقين قول النبيّ عليه الصّلاة والسّلام: ((مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسّهر))، وقوله عليه الصلاة والسّلام: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً)).

وهذه المعاني العظام لا يكون لها تحقّق إلا بالاجتماع ونبذ الفرقة، والفرقة إذا وُجدتْ بين الناس وُجد معها كلّ شرٍ، والاجتماع إذا وُجد بينهم وجدتْ الرحمة والخير والأمن والرّاحة والطمأنينة ، وذهب عنهم الشيطان؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام عن التفرق ((إنّما تفرّقكم هذا من الشيطان)) ، متى قال النبي عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة؟ كان الصحابة في سفر مع النبيّ صلى الله عليه و سلم ، قال راوي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: فكنا إذا أتينا مكاناً للمبيت تفرّقنا . أو للمقيل . تفرّقنا بحيث يبقى طائفة هناك وطائفة هناك يستظلون بتلك الشجرة، وطائفة في الشجرة الأخرى، فقال عليه الصلاة والسلام: ((إنّما تفرّقكم هذا من الشيطان)) ، انظر حرص الدين على الاجتماع حتى في الأسفار ، في الإقامة، في أي مكان يدعو إلى الاجتماع ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))، بينما إذا اجتمعوا وتقاربوا في حِلق العلم ، في مجالس الذّكر ، في مجالسهم العامة ، يتقاربون ويكون بينهم الألفة والمحبّة والتراحم والتآخي كل هذه معاني دعا إليها الإسلام وهي من أصوله التي دعا إلى تحقيقها، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات:١٠]، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: ((لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره)). وكما أنّ الإسلام دعا إلى الاجتماع ونهى عن الفرقة، فإنه حذر أشدّ التحذير من كل أمر يخدش في الاجتماع أو يخلّ به، وحرّم كل أمرٍ من هذا القبيل؛ حرّم الغيبة، وحرّم النّميمة، وحرّم التناجش، وحرّم الحسد، وحرّم التدابر، والتباغض ، كلّ هذه نهى عنها الإسلام لأنها تخدش وتخل بالاجتماع، وتفرّق بين المسلمين ، وتشتّت شملهم ، وتوجِد الفرقة بينهم، فكلّ أمر يخل بالاجتماع نهى عنه الإسلام وحرّمه.

ولهذا من يطالع الأدلة في كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه صلى الله عليه و سلم المشتملة على الأمر بالاجتماع والنهي عن الفرقة يجدها كثيرة جدا، بُيِّنتْ – كما قال المصنِّف– بياناً وافياً ، ((**أمر الله بالاجتماع في الدّين ونهيه عن التّفرّق فيه، فبيّن الله هذا بياناً شافياً يفهمه العوام**)) هذا الأصل مُبيَّن في الكتاب والسنة بيانا شافيا يفهمه العوام فضلا عن غيرهم من طلاب العلم أو العلماء، من ذا الذي يخفى عليه بيان الله في كتابه، وبيان رسوله عليه الصلاة والسلام في سنته بالأمر بالاجتماع!! قال عليه الصلاة والسلام: ((عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة))، من الذي يخفى عليه دعوة الإسلام للاجتماع ونبذه للفرقة؟ فهذا أمر بُيّن في كتاب الله عزّ وجلّ بياناً شافيا وافيا تفهمه العوام فضلا عن غيرهم.

قال: ((**ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا**)) ؛ أيضاً مما جاء بيانه في الكتاب والسنة

حول هذا الأمر: الإخبار عن عواقب المتفرقين ممن كانوا قبلنا ، وأنهم لم يبوؤوا بتفرقهم إلاّ الفشل والخسران وضياع الدين وتشتت الشمل، هلكوا بسبب التفرّق، والتفرّق في الدّين يعني لم يجتمعوا على الدين الذي بلغهم ووصل إليهم لم يجتمعوا عليه وإنما تفرّقوا وأصبح كلٌّ على قبيل وكلٌّ على وجهة.

قال: ((**وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرّق فيه**)) وهذا في آيات كثيرة مرّ الإشارة إلى طرف منها.

قال رحمه الله: ((**ويزيده وضوحاً**)) أي يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً ((**ما وردت به السنة من العجب العجاب في ذلك**)) أي أن تبيان السنة لهذا الأمر وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاجتماع وتحذيره من الفرقة جاء في السنة مبينا بيانا وافيا ، جاء في السنة من بيان ذلك العجب العجاب كما عبّر بذلك المصنِّف ؛ يعني كمًّا كبيراً وقدراً عظيماً من الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في الأمر بالاجتماع والتحذير من الفرقة ، وجاء الأمر بالاجتماع في أحاديث كثيرة بالنّص على هذا اللّفظ «الاجتماع» ، وجاء في أحاديث أخرى عديدة بالمعنى الذي يدل عليه والمقصد الذي يرمي إليه الاجتماع ، وكذلك التحذير من الفرقة وكل أمرٍ يؤدي إليها أو يفضي إليها، والأحاديث عنه عليه الصلاة والسلام في الأمر بالاجتماع والنهي عن الفرقة كثيرة جداً .

وما أحوج الناس إلى الوقوف على كلامه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب حتى يعالَج ما في الصدور من شتات وميلٍ إلى الافتراق وأخذٍ بأسباب الافتراق والعدوان ؛ ولهذا من البحوث المقترحة في هذا الباب أن يُجمع أنواع دلالات السنة على الاجتماع وذم الفرقة في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، كم يحتاج الناس إلى الوقوف على ذلك!! وهو باب كما قال المصنف ورد فيه في السنة عجبٌ عجاب، فلو وقف عليها طالب العلم وجمعها وصنّفها إلى أنواع بحيث يجتمع قدرٌ عظيم من هذه الأحاديث في موضع واحد ، والذي ورد عنه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب قدر كبير جداً كما أشار المصنف رحمه الله إلى ذلك.

ثم مع هذا الأمر، مع وضوح هذا الأمر في الكتاب والسنة وكثرة الدلائل فيهما عليه يقول المصنف ((**ثم صار الأمر**)) أي عند الناس وفي واقعهم وفي حياتهم ((**إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون**)) يعني انقلب الأمر رأسا على عقب ؛ أصبح لكثرة الشتات والافتراق وتفرق الناس أصبح الداعي إلى الاجتماع مذموما ، والداعي إلى الافتراق محمودا ، صار واقع الناس في هذا الباب أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدين ! بل يُمدح، ولعلنا نسمع في حياتنا وواقعنا من يرفعون رايات يمجّدونها ويعدُّونها هي صميم العلم وهي كبد الحقيقة يقولون: "حرية الاعتقاد"، "حرية الرأي"، "حرية الكلمة"، كلمات من هذا القبيل تطلق ونظائرها كثير ؛ أي أن كلٌّ له رأي، وكل له عقل، وكل له عقيدة ، ومعنى ذلك أنّ هذا دعوة

للتّفرّق وحمد له وثناء عليه ، ولا يمكن أن يكون اجتماع إلا على كلمة سواء، أما إذا كان الناس كل له وجهة وكل له عقيدة وكل له مذهب كيف يجتمعون؟ مثل ما قال أحد أهل العلم في قضايا الدين عموماً، لكن أخذنا مثالاً: رجلٌ يطوف بالبيت وهو يقول: اللهم ارضَ عن أبي بكر وعمر، وآخر يطوف بالبيت ويقول: اللهم الْعَن أبا بكر وعمر، أين هذا من هذا؟! لا يمكن أن يكون بينهما اجتماع، ولا يمكن أن يقال: هنا حرية كلمة أو حرية رأي، هذا مثال وإلا قسْ عليه بقية أمور الدين ، شخص يقول: الإيمان يزيد وينقص، وآخر يقول: لا يزيد ولا ينقص، أو آخر يُثبت القدر ويؤمن به، وآخر ينفيه ويجحده، وهكذا؛ اختلاف في العقيدة واختلاف في العبادة ، هذه الأمور ما يمكن أن توجد وتبقى ويبقى معها اجتماع ، ولهذا الاجتماع لا يكون إلاّ على الدّين .والتفرّق لا يكون في الدين، ولهذا أحد العلماء قال كلمة عظيمة في معنى قول النبي صلى الله عليه و سلم: ((ولا تباغضوا)) قال «وفي قوله صلى الله عليه و سلم: ((ولا تباغضوا)) نهيٌ عن البدعة» ما معنى هذا الكلام؟ قال: «لأن البدعة إذا وجدتْ وُجدتْ الفرقة بين المسلمين»، البدعة تفرِّ، ق والسنة تجمع، ولهذا يقال: أهل السنة والجماعة، وأهل البدعة والفرقة. البدعة إذا وُجدتْ فرَّقتْ، والسّنة إذا وُجدتْ جمعتْ.السنة تجمع والبدعة تفرق ؛ فلا يمكن أن نغالط حقائق الأمور ونطلب الاجتماع على البدعة، كلٌ على بدعة ويُطلب الاجتماع على !! بل بعضهم قعَّد في هذا قاعدة عُدّتْ أصلاً في العلم لدى أقوام ، قال: "نجتمع فيما اتفقنا فيه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه" بحيث كل على عقيدة وكل على رأي وكل على مذهب ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه . هذا ضياع للدّين، هذا تقعيد لضياع الدين، وتقعيدٌ لافتراق المسلمين وعدم اجتماعهم.

فالمصنِّف رحمه الله يقول هنا: ((**صار الأمر أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدّين**)) ومعنى كلامه واضح، أصبح الكلمات التي تطلق ويُدعى فيها إلى الاجتماع على غير كلمة سواء وإنما كلٌّ على فكره وكلٌّ على رأيه وكلٌّ على عقيدته ونحلته ومذهبه ؛ أصبحتْ مثل هذه الدّعوات هي الدّعوة للعلم، والدعوة الصّحيحة في أفهام كثير من الناس.

وفي مقابل ذلك ((**صار الأمر بالاجتماع في الدين**)) وضع إشارة عند قوله «في الدين» ((**وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلاّ زنديق أو مجنون**)) نعم هناك شعارات تُرفع للدّعوة إلى الاجتماع ، لكن أين الشّعار الذي يرفع للاجتماع في الدّين؟! أي الدّين الصّحيح المتلقّى من كتاب الله وسنّة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ((**وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون**)) عند من؟ عند هؤلاء أهل الافتراق أصبح لا يدعو إلى الاجتماع في الدين إلا من هو عندهم زنديق أو مجنون . ومن يحذِّر من البدع التي تفرِّق ومن يحذّر من الأهواء التي تفرّق يصفونه بصفاتٍ شنيعة وألقابٍ سيئة، ويتّهمونه في عقله ، يتّهمونه في

فكره ، يتهمونه في قصده وفي نيته ، ويقعون في عرضه، وهو لم يفعل إلا أن دعا إلى السنة وحذّر من نقيضها وضدها وهو البدعة والحدث في دين الله.

وهنا ينبّه المصنّف أن الدعوة للاجتماع ليست دعوة لاجتماع هكذا كيف ما اتفق وكيف ما كان، وإنما هي دعوة للاجتماع على كلام الله وكلام رسوله ، على دين الله وعلى كتابه وعلى سنّة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وربّ العالمين أمر العباد بالاجتماع والاعتصام قال: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران:١٠٣] ؛ حبله قيل: القرآن، قيل: السنة، قيل: الإسلام. وهذا كلّه صحيح ، كلها حبل الله عزّ وجلّ ؛ حبله ودينه الذي دلّ عليه كتابه وسنّة نبيّه صلى الله عليه و سلم

قال رحمه الله تعالى :

الأصل الثالث : أنّ من تمام الاجتماع السّمع والطاعة لمن تأمَّر علينا ولو كان عبداً حبشيا ، فبيَّن النبيُّ ﷺ هذا الأصل بياناً شائعاً كافيًا بوجوه من أنواع البيان شرعا وقدرا . ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟!

****

ثم ذكر رحمه الله الأصل الثالث ((**أن من تمام الاجتماع السّمع والطّاعة لمن تأمَّر علينا ولو كان عبداً حبشياً. فبيَّن الله هذا بياناً شائعاً كافياً**)) شائعاً : أي ذائعاً منتشراً ، وشافياً: أي فيه الشّفاية والكفاية والغنية ((**بوجوه من أنواع البيان شرعاً وقدراً**)) شرعاً: أي فيما جاء من الدّلائل على ذلك في الكتاب والسّنة .

والأدلة في القرآن والسنة في السمع والطّاعة كثيرة، قال عزّ وجلّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ }[النساء:٥٩]. وفي سنة النبيّ عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة جداً في السمع والطّاعة اقرأ طرفاً كبيراً منها في كتاب الإمارة من صحيح مسلم؛ أورد أحاديث كثيرة جداً فيها الأمر بالسمع والطّاعة لمن تأمّر .

وأشار المصنّف رحمه الله هنا إلى حديث العرباض بن سارية الذي قال فيه العرباض: «وعظنا رسول الله صلى الله عليه و سلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رسول الله كأنّها موعظة مودِّع فأوصنا» قال: ((أوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ والسمع والطاعة لمن تأمّر عليكم وإن كان عبداً)) ، وجاء في بعض الأحاديث: ((وإن كان عبداً حبشيّاً كأنّ رأسه زبيبة)) إذا تأمّر عليكم وصارت له الغلبة وتولى الأمر واستتبّ له الأمر فالسّمع والطّاعة. والأحاديث في هذا الباب كثيرة منها : ما جاء في الصحيح عن عبادة بن الصامت قال: ((بايعنا رسول الله صلى الله عليه و سلم على السمع والطاعة في العُسر واليُسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله)) قال: ((ما لم تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان)). وجاءت

أحاديث فيها الوعيد لمن نزع اليد من الطاعة وأنه إذا مات على ذلك مات ميتة الجاهلية ، ويمكن الوقوف على الأحاديث في هذا الباب في كتاب الإمارة من صحيح مسلم لأنه رحمه الله جمع في هذا الباب قدراً كبيراً من الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم.

فهذا الأمر بيّن في الكتاب والسنة كما أشار المصنِّف بياناً شافياً كافياً بوجوه من أنواع البيان، فهذا بحث آخر مقترح.

البحث الأول: وجوه أنواع البيان في الأمر بالاجتماع.

والآخر: وجوه أنواع البيان في السمع والطاعة .

وهذا الأمر مرتبط بالذي قبله أو هذا الأصل مرتبط بالأصل الذي قبله؛ الأصل الأوّل: الاجتماع، والثاني: السمع والطاعة. وهذان أصلان مترابطان لا يتحقّق الأوّل منها إلاّ بالثاني؛ لأنه لا اجتماع إلاّ بإمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، بل إنّ هذه الأصول الثلاثة التي ذكرها المصنّف رحمه الله هنا مترابطة ؛ الإخلاص في العبادة، وأن يؤدي الناس عبادتهم مطمئنين بأمن وأمان وسلامة وطمأنينة، وهذا لا يتحقّق لهم إلاّ بالاجتماع ، أما إذا كانوا متفرقين متعادين متباغضين شغلتهم الفرقة عن الدين وعن العبادة وعن الإخلاص، وصاروا متشتتين في آرائهم وأفكارهم ووجهاتهم عن العبادة التي خُلقوا لأجلها .

والقيام بالعبادة يحتاج إلى اجتماع ، والاجتماع لابد فيه من رأس ولي أمر إمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، ولهذا إذا انفرط العقد في هذه انفرط في جميعها ، إذا نُزعت اليد من الطاعة ووجد تبعًا لذلك الفرقة، وإذا وجدت الفرقة ضاع الدين وضل الناس. وقد أشار المصنِّف رحمه الله قال: ((**ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا**)) فالفرقة هلاك وضياع للدّين وتشتّت للشّمل، كيف يتحقّق للنّاس عبادة؟ كيف يتحقّق لهم طلب علم؟ وكيف يتحقّق لهم ممارسة مصالحهم العامة والخاصة إذا كانوا متفرقين متعادين متباغضين؟ كيف تقام الحدود؟ كيف يطمئن الناس على الأموال والأعراض؟ كلّ هذه الأمور لا تتحقّق إلاّ بجماعة، والجماعة لا تتحقق إلا بإمام، والإمامة لا تكون إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا كان من الأصول التي أكّد عليها عليه الصلاة والسلام: السمع والطاعة، بل إنه صلى الله عليه و سلم ضم هذا الأصل في بعض أحاديثه إلى فرائض الإسلام كما قال في حجّة الوداع صلى الله عليه و سلم: ((اعبدوا ربَّكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة مالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنّة ربِّكم)) ؛ فذكر الطاعة لذي الأمر مضمومةً إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وجعل هذه كلها من موجبات دخول الجنة قال: ((تدخلوا جنّة ربّكم)) ، فأكّد عليه الصلاة والسلام على هذا الأمر . وجاء أيضاً عنه في حجّة الوداع أنه قال: ((عليكم بالسّمع والطّاعة وإن تأمّر عليكم عبد)).

وجاء عنه أيضاً في حجّة الوداع الجمع بين هذه الأصول الثلاثة التي أشار إليها المصنف في حديث واحد في مسجد الخيف، خطب النّاس في أوّل أيام التشريق في مسجد الخيف من منى كما في حديث جبير بن

مطعم في حديث ابن مسعود قال: يقول جبير: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم في الخيف من منى يقول: ((نضّر الله امرءً سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ولزوم جماعة المسلمين، ومناصحة من ولاّه الله أمرهم)) ؛ فجمع عليه الصلاة والسلام بين هذه الأمور الثلاثة في حديث واحد، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنّ قلب المسلم لا يُغِلّ على هذه الأمور، لا يُغلّ : أي لا يوجد فيه غلّ وأنفة من هذه الأمور ، بل يتقبّلها بانشراح وقبول ولا يستنكف ولا يستكبر، بل يتقبّلها بكل انشراح: الإخلاص، ولزوم الجماعة، والسمع والطّاعة، خلاف ما كان عليه أهل الجاهليّة.

والمصنِّف رحمه الله شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهاب لما صنّف كتابه «مسائل الجاهليّة التي خالفها الإسلام» بدأها بأضداد هذه الثلاثة، قال: المسالة الأولى الشرك، والمسألة الثانية: التّفرّق، والمسألة الثالثة: عدم السمع والطاعة. والاستكبار عن السمع والطاعة ؛ هذه جاهلية، شركٌ وتفرق وعدم سمع وطاعة ، والإسلام جاء بالتوحيد، وجاء بالاجتماع، وجاء بالسمع والطاعة، وهي أمور مترابطة.

وقوله: ((ثلاث لا يغلّ عليهن قلب امرئ مسلم)) قال أيضاً العلماء في معناه: أن من وُجد عنده هذه الأمور الثلاثة انتفى من قلبه الغلّ ، من وُجد عنده هذه الأمور الثلاثة الإخلاص لله، ولزوم الجماعة، والنّصيحة لولاة الأمر فليس للغل في قلبه مكان .

- ❖ أما الإخلاص : فإنّ قلبه متجه في أعماله كلها لطلب رضا الله ، لا لمطمع دنيوي، ولا لشهرة يريدها، ولا لحظوظ تخصه يطمع بها، وإنما أعماله يقوم بها مبتغياً بها وجه الله ، {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ}[الإنسان:٩] ، فهو في معاملته للناس ومجالسته لهم ومحادثته لهم كل ذلك قائم عنده على الإخلاص والمراقبة لله تبارك وتعالى ؛ فمن كان هذا شأنه أين سبيل الغلّ إلى قلبه ، وقلبُه معمور بالإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى!!
- ❖ ثم ينضم إلى ذلك حرصه على الجماعة ونبذه الفرقة ورغبته في اجتماع الدين واجتماع أهله عليه ، فمثل هذا الذي هو ملازِمٌ للجماعة حريص عليها حريص على الاجتماع لا يدخل إلى قلبه الغلّ؛ لأنّ قلبه متجه إلى اجتماع كلمة المسلمين ونبذ الفرقة، فالغلّ ليس له سبيل على قلبه.
- ❖ وإذا كان ناصحاً لولاة الأمر في قلبه بالدّعاء وسؤال الله عز وجلّ صلاحهم وهدايتهم ، وتقديمه للنصيحة لهم ما استطاع بالوسائل الشرعية والطرق الشرعية ، إذا كان بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة لا يكون في قلبه غلٌّ؛ ولهذا هنا تجد الفرق بين العالم وبين صاحب الهوى ،كما قال البر بهاري رحمه الله في كتابه شرح السنة قال: «إذا رأيت الرجل يدعو للسّلطان فاعلم أنّه صاحب سنة، وإذا رأيته يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحب بدعة». وهنا يتبين الفرق؛ صاحب السنة يهمه اجتماع المسلمين، ويعرف أن اجتماعهم لا يكون إلا على إمام ، ويعلم أن صلاح الإمام صلاح للرعيّة؛ ولهذا كان الفضيل يقول: «لو

كان لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان». قال عبد الله بن المبارك: «ومن يقدر على هذا إلا مثلك؟!» ، هذه درجة في الفقه عالية ما يصل إليها كلّ أحد، قال: «من يقدر على هذا إلا مثلك»، لو قيل الآن لأحدنا: لك دعوة واحدة مستجابة، أدعو بشيء واحد معين الآن وتظفر به إلى ماذا يتجه؟ يقول عبد الله بن المبارك: «من يقدر على هذا إلا مثلك» الآن هذا قلب كبير الذي يقول: «لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان» هذا قلب كبير لأنه استوعب الأمّة بالدّعوة المستجابة ، لم يخصها لنفسه ؛ استوعب الأمّة كلها لماذا ؟ لأنه إذا دعا للسلطان وأصلح الله عز وجل السّلطان الرّعية تبع ، إذا طاب الملك طاب الجند، مثل قال أبو هريرة ﷺ: ((وإذا طاب الملك طابت جنوده)) والناس تبع لملوكهم في الغالب ، وإلا قد يفسد الرّئيس أو الوالي ويصلح عدد من الرعية والعكس أيضاً، لكن الأصل أن الناس تبع لملوكهم ؛ ولهذا هذا قلب كبير لما يقول: «لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان» قلبه استوعب بهذه الدعوة الأمة كلها واستوعب مصلحة الأمة كلها ، بخلاف لو أنه خصّ هذه الدعوة بنفسه، فهذا من الفقه في الدين. وتجد في المقابل من الناس من في قلبه غلٌّ وتجارتْ به الأهواء فيطعن في الولاة ويسبُّ الولاة، بل صحّ في الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: ((لا تسبُّوا أمراءكم)) نهى عن ذلك، إذا كان الإنسان له دعاء فليدعُ لهم بالصّلاح بالهداية بالاستقامة ، لأنّ صلاحهم يعود على رعيتهم، على مجتمعهم، على المسلمين. وهذا باب من الفقه ما يصل إليه من دخل قلبه الهوى، ولا يصل إليه الإنسان إلا إذا كان على السنة سالماً من الهوى ؛ ولهذا لا يغل ، يعني من كان عنده نصح لولاة الأمر لا يغل قلبه، لأن النّصح للولاة يطرد الغلّ، كما أنّ لزوم الجماعة يطرد الغل، كما أن الإخلاص لله تبارك وتعالى يطرد الغل.

فالشّاهد أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام جمع بين هذه الأصول الثلاثة في حديث واحد قاله في مسجد الخيف من منى، وهذا الحديث: ((ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم)) وأوله ((نضرّ الله امرءً سمع مقالتي)) حديث متواتر رواه عن النبيّ صلى الله عليه و سلم أكثر من عشرين صحابيّاً. ولعلّ من أسباب تواتر الحديث أنه ألقي في مجمعٍ عام وفي خطبة عامة يسمعها الجميع ، فهذا كلّه من نصح النبيّ صلى الله عليه و سلم لأمّته وبيانه لأمّته صلوات الله وسلامه عليه.

وقول المصنّف رحمه اللههنا: ((**إنّ هذا بُيّن شرعاً وقدراً**)) شرعاً: أي بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم من أدلة على ذلك. وبيانه قدراً : أي بما يُرى ويشاهد ويُعاين من الوقائع والأحداث المدمية المؤلمة بسبب التفرق، وأيضاً ما يشاهد ويعاين من الأحداث المفرحة بسبب الاجتماع ، وكيف أنه بالاجتماع تتحقّق الرحمة للناس ، وبالفرقة يبوؤون بالعذاب ويصبحون نهبة للأعداء. وإذا تنازع أهلُ الإيمان وتفرّقوا ذهبت هيبتهم وضعفت كلمتهم وتسلّط عليهم عدوهم . فهذا أمر مبين قدراً من ينظر في حال الناس وفي واقعهم عبر التاريخ يرى واضحاً أثر الاجتماع ويرى أيضاً واضحاً أثر الفرقة .

ثم يقول المصنف بعد بيانه لهذا الأمر: ((**ثم صار هذا الأصل لاُ يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به**)) هذا الأصل الذي هو السمع والطّاعة لا يُعرف عند أكثر أهل العلم -يعني دعك عن العوام- لا يعرف عند أكثر أهل العلم فكيف العمل به، فكيف أن يعمل به يعني يحقق السمع والطاعة التي أُمر بها !! إذا دخلت الأهواء القلوب عميت عن السنة ، وأصبح يشتغل من هو معتنٍ بالعلم بالوقيعة في الولاة وإغارة الصدور على الولاة وملأ القلوب بالغش للولاة والحقد وغير ذلك من المعاني التي ليس في القرآن ولا في الأحاديث حرف واحد يدعو إليها ، لا يوجد في الأحاديث حرف واحد يدعو إلى هذه الأمور، لكن ترى في الأحاديث وبكثرة أمر بالسمع والطاعة، أمر بالاجتماع، أمر بالدعاء للولاة، أمر بالنصيحة للولاة، أحاديث كثيرة في هذا المعنى ، ولا يوجد حديث واحد فيه الأمر بسبِّهم، أو الأمر بغشهم، أو الأمر بإغارة الصدور عليهم، أو ملأ النفوس غشا لهم ، لا يوجد حديث واحد .

فمن عمل بهذه الأمور -أعني الغش والغل والسب- هل رائده في هذه الأعمال السنة؟ إن قال: نعم، يأتي بحرف واحد في السنة يدل على هذه الأمور ، وإن كان رائده الهوى -وهو فعلا رائده- فهذا يهلك نفسه ويهلك غيره

فالسنة ليس فيها إلا الدعوة للاجتماع والمناصحة ، حتى لو حصل من ولي الأمر فساد وجور وظلم ففي هذا المقام أكَّد النبي صلى الله عليه و سلم أيضاً على السمع والطاعة، قال: ((اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك)) ؛ وهذا فيه لفت انتباه إلى عموم الناس أن ضياع حظ الإنسان ونصيبه الدنيوي ليس مخولا لنزع اليد من الطاعة ، وكم من أناسٍ نزعوا أو كان سبب نزع اليد من طاعة هو فوات حظّه الدنيوي ، لم يحصِّل كذا ولم يحصل كذا فيبدأ يسب الولاة ويطعن فيهم ويوغر الصدور عليهم ، وإذا فتشت عن سبب هجمته هذه لا تجدها نصرةً للدين وإنما نظرًا لحظ النفس ، ولهذا لفت النبي صلى الله عليه و سلم الانتباه لهذا الأمر قال: ((اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك)) قال: ((اسمع وأطع)) . وجاء أيضاً: ((اصبر حتى يستريح بَر أو يستراح من فاجر)). أكّد على هذا المعنى ، وكثير من الناس عندما يدخل في هذه القضية يدخل لحظوظه الدنيويّة؛ إمّا كان يريد رئاسة فما حصلت له، أو زعامة لم تتحقّق له، أو مالاً، أو ما إلى غير ذلك {فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}[التوبة:٥٨] ، لكن الناصح الذي ليس في قلبه غل همه دين الله عزّ وجل ، حتى لو فات بعض حظه، اجتماع الناس وصلاح أمرهم أهم عنده وأولى عنده بالعناية.

يذكر الشّوكاني رحمه ا لله في رسالة له في هذا الباب قصة تصور حال العوام في هذا الباب يقول: كنا في مجلس فتكلم أحدهم في أحد الوزراء أخذ يطعن فيه ، فقلت له تطعن فيه لدينه أو للدنيا ؟ قال بل للدين ، يقول ثم سكتنا قليلا فبدأ الرجل يتكلم عن ذاك الوزير قال : الفاعل ابن الفاعل يركب الفاره من الدواب ويلبس الفاخر من الثياب ويسكن الكذا من القصور ، أصبح الحديث عن ماذا ؟ عن الدنيا ربما لو أعطي

هذا مثله قصور و.. انتهت المشكلة ، فأصبح طعنه فيه في أمر الدنيا وليس نصحا للدين ، ولو كان نصحا للدين ليس هذا سبيله. سبيله النصيحة المبينة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

فهذه الأمور ما تصلح إلا بالسنة ، والسنة لابد فيها من قراءة أحاديث النبي صلى الله عليه و سلم بتجردٍ من الأهواء. وكثير من الناس بسبب غلبة الأهواء عليهم يستوحش من قراءة الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة، يقرأ بلا استيحاش الأحاديث التي في الصلاة، ويقرأ بلا استيحاش الأحاديث التي في الزكاة، وإذا جاء إلى مثل كتاب الإمارة من صحيح مسلم استوحش من الأحاديث! لماذا؟ الذي أمر بالصلاة والصيام هو الذي أمر بالسمع والطاعة ، ومصلحة المسلمين في هذا كله.

فهذا باب عظيم وأصل مهم ؛ عندما يغلب على الناس الأهواء يضيعونه ، ويكون تضييعهم له ليس مبنيا على قواعد شرعية ، وإنما مبني على أهواء تتجارى بالناس وتذهب بهم المذاهب، وفي هذا الباب تجد من يسلك هذا المسلك –مسلك الفرقة والوقيعة في الولاة– يوصف بين عوام المسلمين بماذا ؟ يوصف بالذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، يقول كلمة الحق ولا يبالي ، وألقاب تطلق في غير محلها حتى يُنفخ في الناس، وحقيقة أمره أنه يشق صف المسلمين ويفرق كلمتهم ولا يتحقّق فيهم على يديه خيراً، الخير بالاجتماع، الرحمة بالاجتماع، بإصلاح الأمور ، بالنصيحة، بالدعاء بالتعاون، باللين، ليس بإيغار الصدور، وتفرق الكلمة، وتشتيت الشمل ؛ هذه الأمور لا يتحقق بها خير. فالشّاهد أنّ هذه الأصول الثلاثة: الإخلاص، والاجتماع، والسمع والطاعة، أصول كثر بيانها في النصوص والأدلة ، ولكن قلّ من يعمل بها بسبب الأهواء التي تتجارى بالناس.

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصل الرابع : بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء وبيان من تشبه بهم وليس منهم ، وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله : {يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم} [البقرة:٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: {يَا بَنِي إِسْرائيل }[البقرة:١٢٢] الآية، ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنَّف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم)).

****

قال المصنف رحمه الله : ((**الأصل الرابع : بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء وبيان من تشبه بهم وليس**

منهم))؛ هذا الأصل عقده المصنِّف رحمه الله وأورده هنا لأنه أصلٌ التبس على كثير من الناس واختلط عليهم دعاة الحق من دعاة الباطل ، وأصبح الناس يأخذون عن كل متكلم ويبتغون كلَّ ناعق ، ولا يميزون بين أهل الحق والباطل بل ليس عندهم آلة يميزون بها بين من هو داعية للحق أو داعية للهوى والباطل ، ورب العالمين أرشد في كتابه السائلين والمستفتين والمتعلمين؛ أرشدهم إلى الأخذ عن أهل الذكر: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٤٣] . ليس الأخذ عن كل أحد وإنما الأخذ عن أهل الذكر وهم أهل العلم والفقه بدين الله تبارك وتعالى. وعندما يختلط هذا الأمر على الناس يصبح أخذهم عن كل أحد وتلقيهم عن كل متحدث ، وهذا من أعظم أسباب الانحراف عن دين الله تبارك وتعالى ، وقد صحَّ في الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمّة المضلين)) ، وأئمة الضلال هم من يلبسون لبوس العلم ويتزيؤون بزي العلماء ولكنهم ينشرون البدع في الأمة والخرافات والأهواء والضلالات وما لا أصل له في دين الله ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق ويحجبونه عن الناس ؛ فتنتشر على أيديهم البدع وتنتشر على أيديهم الخرافات ، ولا يزال أتباعهم يحسِّنون بهم الظن ، ويظنون أنهم يبينون دين الله عز وجل ، وتراه يؤيد باطله إما بحديث مكذوب، أو آية يحرفها عن معناها، أو قصة يخترعها، أو رؤية منامية يدّعيها، أو تجربة يزعمها، أو نحو ذلك من المسالك المتبعة عند هؤلاء في نشر ما عندهم من خرافة وباطل. ولضعف البصيرة في الناس والفهم والدراية يروج عليهم كلام أمثال هؤلاء .

ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذا الأصل نصحاً للناس ، وبياناً لهذا الأمر ؛ أن يُعرف الفقه والفقهاء والعلم والعلماء . العلم والفقه أي النافع الذي أمر الله تبارك وتعالى به، فليس كل كلام يُلقى هو فقهٌ، وليس كل بيان يبيّن هو فقه، والعلم والفقه الذي مدح الله عز وجل أهله ورغَّب النبي صلى الله عليه و سلم في تحصيله وتلقيه هو العلم الشرعي المستمد من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم، «العلم قال الله قال رسوله» هذا هو العلم على ضوء فهم الصحابة الكرام ومن اتبعهم بإحسان؛ هذا هو العلم الذي امتدحه الله وهذا هو ميراث الأنبياء ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((فإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) ، وهذا هو العلم الذي شهد عليه الصلاة والسلام لصاحبه بالخيرية ((من يرد الله به خيراً يفقه في الدّين)) ، ((خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه))، ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة)) ، ((وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)).كل الأحاديث التي وردتْ في الترغيب في العلم والحثّ عليه فالمراد بها العلم الشّرعي. والمراد بالفقه الفقه الذي يستمد من كتاب الله عزّ وجلّ، سواء أريد بالفقه الفقه الأكبر الذي هو العقيدة وأصول الدين ، أو الفقه الأصغر الذي هو الأحكام والفروع، فهذه كلّها فقه في دين الله تبارك وتعالى. ولا يكون هذا الفقه صالحاً سديداً إلاّ إذا كان مستمداً من كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام على ضوء فهم السلف الصالح رحمهم الله.

وعند ما لا تميّز هذه الحقيقة تُخلط أمور في هذا الباب وتسمى علماً فتُضرّ بالناس غاية الضّرر، ومن أعظم ذلك خطراً على الناس وأدهاه عليهم علم الكلام الذي بنى عليه أربابه فهم دين الله عزّ وجلّ بمعزل عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم ، وصار الواحد منهم في تقريره لأمور دينه وأمور الاعتقاد يذكر عقليات وتصورات وفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا أراد أن يقرر عقيدة قال: بما أن كذا يكون كذا ، ولو كان كذا لكان كذا ؛ فيمضي بهذا الأسلوب في تقرير الاعتقاد وبين يديه كتاب الله ناطق بالحق وبين يديه سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم شاهدة بالحقّ ودالة عليه فيُعرض عنهما، ثم يقحم عقله القاصر وتصوراته الضعيفة! فيبدأ يقرر في الاعتقاد ما لا أساس له ولا أصل عليه، خوض في الله وفي دين الله وفي شرع الله بلا علم؛ وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام { وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[الأعراف:٣٣]، {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء:٣٦] .

وبات علم التوحيد الذي هو أعظم العلوم وأجلها يسمى . بسبب تعلق هؤلاء بعلم الكلام . يسمى «علم الكلام» يسمى علم التوحيد عندهم أو علم العقيدة يسمى علم الكلام، ويبدأ هؤلاء في تقرير الاعتقاد على الكلام الباطل والخوض في دين الله عز وجل بالعقليات والآراء ، وقد قال ابن أبي العزّ رحمه الله في شرحه للعقيدة الطحاوية: «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؟!» أي أنّ هذا محال لا يمكن، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى الأصول الصحيحة والعقيدة السليمة دون أن يتلقى ذلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يمكن أيضاً أن يعرف العبادة الصّحيحة إلا بالتلقي عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا قال العلماء: كلّ طريق إلى الله سبحانه وتعالى مسدود إلا من طريق الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يمكن للإنسان أن يصل إلى هدى وإلى حقّ وإلى علم نافع وإلى سديد قول وصالح عمل إلا باتباع الرسول صلى الله عليه و سلم، وجعله أسوة وقدوة في عقيدته وعبادته وعمله {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}[الأحزاب:٢١].

ومن فارق ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم ضلّ، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يقول: «من فارق الدّليل ضلّ السبيل، ولا دليل إلاّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم » ويقول رحمه الله: «كلٌّ يستدل لقوله لا به إلا الله ورسوله»، كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام هو الحجّة، وكلام غير الله وكلام غير الرسول عليه الصلاة والسلام ليس حجّةً، وإنّما تطلب له الحجّة إن وجدت في كتاب الله أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فإن وجدت وإلاّ ردّ عليه قوله، وهذا معنى قول مالك رحمه الله: «كلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلاّ صاحب هذا القبر» يعني رسول الله صلى الله عليه و سلم.

وكما يشير المصنِّف رحمه الله هنا ؛ المصيبة على الناس في هذا الباب عظمت لأنهم أصبحوا لا يميزون بين دعاة الحقّ وأدعياء الباطل، بل أصبح بعض العوام يميل في تلقيه وفي استفتائه إلى من يراه يفتيه بما يريد أو

من يراه يفتيه على هواه، وتجده يتنقل بين من يفتون واحداً تلو الآخر إلى أن يقع على شخص يرخص له فيما يريد ، ليس منشوده الحق ومطلوبه دين الله عزّ وجلّ، وإنما منشوده الأمر الذي اتجه للسؤال عنه أو طلب الرخصة فيه. وهذه من المصائب العظيمة، أصبح في الناس من لا يميز بين الفقه والفقهاء والعلم والعلماء، وأصبح الداعية للبدعة الذي لا يُسمع منه تقرير الاعتقاد الصحيح والدين القويم على ضوء الدليل المستمد من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام يُعد عند بعض الناس عالماً وفقيهاً، وأصبح أيضاً عكس ذلك ؛ العالم المنضبط بضوابط الكتاب والسنة المتقيّد بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم يُرمى بأوصاف ينفّر بها الناس عنه ، والأوصاف التي يرمون بها العلماء الذين هم على السنة وعلى التلقي من كتاب الله عز وجل كثيرة جداً في القديم والحديث.

قال: ((**بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبّه بهم وليس منهم**)) يشير ههنا إلى أن في الناس من يشتبه بأهل العلم ويتظاهر بالعلم وهو في الواقع يدسّ البدع وينشر الباطل والخرافة بين الناس، لا ينشر دين الله عز وجلّ، وإنما ينشر خرافات باطلة وبدعًا ضالة ؛ هذا الذي عنده وهذه بضاعته ، لكنه يتظاهر بمظهر العلم والفقه والبصيرة في دين الله فيغر العوام ويخدع الجهال.

قال: ((**وقد بين الله عز وجل هذا الأصل في أول سورة البقرة من قوله** {يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم} **إلى قوله:** {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ})) مشيراً إلى أنّ في هذا السياق بياناً لهذه الحقيقة ، وإيضاحاً إلى أن العالم الحق شأنه ذكر نعمة الله عليه وفضله عليه وشكره لنعمة الله تبارك وتعالى ، وعدم لبسه الحقّ بالباطل، وعدم كتمانه للحق ، ومحافظته على ما أُمر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبعد عن أن يكون شأنه شأن من يدعو إلى الشيء ولا يعمله {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }[البقرة:٤٤] ؛ فهذا السياق المبارك عندما يتأمله المسلم وطالب العلم يجد فيه ضوابط يميز بها بين العلماء والأدعياء، فالعلماء لهم صفاتهم، والأدعياء لهم صفاتهم، وكلّها مبينة في هذا السياق وفي مواضع أيضاً أخرى من كتاب الله عز وجل تكشف هذا الأمر وتجلي هذه الحقيقة.

قال: ((**ويزيده وضوحاً**)) يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً ((**ما صرّحتْ به السنة في هذا الكلام الكثير البين الواضح للعام البليد**)) أي أنّ السنة جاءت ببيان العلماء وصفات أهل العلم، ولو وقف طالب العلم على بعض الكتب المصنّفة في هذا الباب –وبخاصة كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر– لوجد فيه من السنة ذكر فضل العلم وعلامات أهله وصفاتهم في ضوء سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فهو أمر بُيّن في الكتاب والسنة غاية البيان، بُيّن كما قال المصنف بياناً واضحاً للعامي البليد، ذُكر في القرآن والسنة نصوص توضِّح من هم العلماء واضحاً للعامي البليد ، لكن المعرض والمتبع لهواه ونحو هؤلاء تختلط

عليهم الأمور وتلتبس إما بسبب الجهل أو بسبب اتباع الأهواء.

قال: ((**ثم صار هذا أغرب الأشياء**)) صار هذا الأمر أغرب الأشياء ، يعني معرفة العلماء وعلاماتهم والفقهاء وعلاماتهم صار هذا أغرب الأشياء ، يعني أمره صار غريباً بين الناس لا يكاد يعرفه إلا القلائل منهم، والأمر الغريب: الذي لا يعرفه إلا القلة من الناس.

((**وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات**)) وصار العلم أي العلم الصحيح المستمد من الكتاب والسنة هو البدع والضلالات، وأصبح في الناس كثيرون من ينكرون السنن ويسمونها بالبدعة، وينكرون العقيدة الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة ويصفونها بالضّلال، وينكرون العبادات الثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ويصفونها بالباطل؛ هذا معنى قوله رحمه الله ((وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات)) أي أنّ هؤلاء أصبحوا يصفون العلم الصحيح والفقه الصحيح بأنه بدعة وضلالة. وما هو العلم؟! العلم هو البدع التي يمارسونها ما أنزل الله تبارك وتعالى من سلطان.

((**وخيار ما عندهم**)) يعني أفضل شيء عند هؤلاء ((**لبس الحق بالباطل**)) ولبس الحق بالباطل هذا أمر لا خير فيه ، أي خيرية في أن يلبس الحق بالباطل وتُخلط على الناس أمور وتغيَّب عنهم الحقيقة الناصعة المأخوذة من الكتاب والسنة!! فإذا كان هذا خيار ما عندهم لبس الحق بالباطل فمعنى ذلك أن هؤلاء في ضياع تام وإعراضٍ تام عن كتاب الله عز وجلّ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال : ((**وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديقٌ أو مجنون**)) ؛ قوله: «**لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون**» أي بزعم هؤلاء ؛ فيصفون الذي يتفوّه بالعلم الشّرعي المستمد من كتاب الله عز وجلّ يصفونه بالجنون، وربما وصفوه بالزّندقة. والزّندقة: مروقٌ عن دين الله تبارك وتعالى، فيصفون المتمسّك بدينه بأنه إما به جنون، أو يصفونه بأنه زنديق أو مارق أو نحو ذلك من الأوصاف ، أسوةً بالمشركين الذين وصفوا النبي عليه الصلاة والسلام بالساحر والكاهن والمجنون والمفتري إلى غير ذلك من الأوصاف التي لقبوه بها، ولُقِّب بنظائرها أتباعه المتمسكين بهديه السائرين على نهجه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ((**وصار من أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه والنّهي عنه هو الفقيه العالم**)) ؛ «وصار من أنكره وعاداه» الضمير هنا يعود إلى العلم والفقه الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، صار من أنكر العلم الصحيح وعادى الفقه الصحيح المستمد من الكتاب والسنة وصنّف في التحذير منه – أي صنّف في التحذير من السنن الصحيحة والفقه الصحيح والعلم الصحيح– وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم !! وهذا موجود ، تُصنيف كتب في رد السنن والإشادة بالبدع وإحياء الضلالات ويوصف أصحابها بالعلماء ويلقبون بالفقهاء، وربما قيل في حقه إمام، وربما قيل إمام الأئمة من قِبل أتباعه من الغوغاء

والجّهال ؛ وهو ليس عنده إلا نشر الخرافة ، إما نشر للقبورية والتعلق بالقبور والكذب على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أو نشر الأحاديث الواهية الضعيفة ، أو تحريف الآيات عن معانيها، أو حكاية القصص وذكر الرؤى والمنامات ، ويكون الكتاب كله مبنياً على هذا الأمر ولا ترى فيه ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) ، ((إنّ شرار الخلق عند الله الذين يتخذون القبور مساجد)) هذه الأحاديث الصّحيحة لا تراها، ترى إما آيةً يحرفونها عن معناها ويصرفونها عن مدلولها مثل استشهاد هؤلاء وكلّ من كتب منهم في هذا الباب بقول الله تعالى {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} [الكهف:٢١] ؛ هذا أمر حكاه الله عز وجل عن أهل الغلبة وهم كفار كما يدل على ذلك سياق الآيات في سورة الكهف فيستدلون به لفعل هؤلاء ، ويتركون ما قاله النبيّ صلى الله عليه و سلم قبل أن يموت بلحظات: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) . ولا يصح أن نقول هذا شرع من قبلنا وشرع من قبلنا جاء بنسخه ، لا يصح أن نقول هذا الكلام لماذا ؟ لأنه لو كان شرع لمن قبلنا أيصح أن يقول عليه الصلاة والسلام: ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))؟ أيصح أن يقول ذلك يلعنهم على أمر هو شرع عندهم؟ هذا لا يقال، فاتخاذ القبور مساجد ليس شرعاً لمن قبلنا، بل هو باطل في أديان جميع الأنبياء، والآية ذكرٌ لحال أهل الغلبة من غير المسلمين { إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} [الكهف:٢٠] . السّياق واضح وصف لحال غير المسلمين، فيستدلون بعمل أهل الغلبة في مساق ليس مساق مدح بل مساق ذم ويتركون حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم !!

العامي المسكين إذا قال له واحد من هؤلاء: الله يقول { قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا} هذا القرآن ناطق باتخاذ القبور مساجد، هذا كتاب الله ناطق، فكيف يقولون إنه لا يجوز؟! العامي مسكين يقول له أيضاً افتح سورة الكهف ويريه الآية في السورة، يقول: كيف يقال إنه هذا حرم؟! العامي ما يدري، ثم يردف هذه الآية التي حرف معناها بحديث يورده للعوام أنّ الرسول صلى الله عليه و سلم قال: ((من اعتقد في حجر نفعه)) مثلاً ، أو أشياء من هذا القبيل يكذبونها ويفترونها، ثم يردف ذلك بقصص، قصة فلان، وقصة فلان، ثم تُجمع في كتاب ويُعدّ علماً ويُعدُّ مؤلفه عالم فقيه، وهو كلّه كذب على الله وكذب على رسوله، وقولٌ على الله بلا علم، وتلفيقٌ وتزويرٌ وكتم للحقّ ولبس للحق بالباطل، وخلط للأمور، ويسمّى الكتاب كتابَ علمٍ، ويسمّى مؤلّفه عالم فقيه ، والذين يكتوون من جمرة هذا الرجل العوام الجهّال، يغترون ويقعون في أنواع من الباطل ؛ هذا مثال، قل في جميع أبواب الدين مثل هذا ، عندما يتصدّر للنّاس دعاة الباطل ودعاة الضّلال فيفسدون في الناس بمثل هذه الطريقة. فالمؤلف رحمه الله وضع هذا الأصل نصحاً للنّاس حتى لا يختلط على عوام المسلمين وعلى المبتدئين وطلبة العلم، لا تختلط عليهم الأمور ويعرفون حقيقة الأمر.

قال رحمه الله تعالى :

((الأصل الخامس: بيان الله سبحانه للأولياء وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية آل عمران وهي قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } ، وآية في المائدة، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } الآية، وآية في سورة يونس وهي قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } . ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لابد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن اتبعه فليس منهم، ولابد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولابد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا نسألك العفو والعافية إنّك سميع الدّعاء)).

****

قال رحمه الله : ((**الأصل الخامس**)) وهذا أصل عظيم ومفيد جدّاً للمسلم، والنّاس بحاجة ماسة لفهمه والعلم به.

يقول رحمه الله: ((**بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**)) هذا أصل مهم يجب على المسلم أن يفهمه في ضوء كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولعلّنا نلحظ ـ معاشر الإخوة ـ الطريقة المباركة والنّهج السّديد الذي عليه هذا الإمام في توضيحه للأمور، لما أراد أن يذكر علامة العلماء وأمارة الفقهاء أورد آيات وأشار إلى أحاديث تُعرف بها ومن خلالها علاماتهم، ولما أراد أن يبين علامات الأولياء أولياء الله سبحانه وتعالى أيضاً أورد آيات من كتاب الله عز وجلّ تعرف من خلالها علاماتهم ؛ منبّهاً بذلك أنّ الحق وأهله ودعاته إنّما يُعرفون من جهة دلالة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم.

قال: ((**بيان الله سبحانه لأولياء الله ، وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**)) ؛ فأولياء الله لهم علامات ذكرتْ في القرآن والسنة، وأولياء الشيطان الذين يدّعون أنّهم أولياء الله أيضاً لهم علامات ذكرت في الكتاب والسنة، وقد صنّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مصنفاً عظيم النفع كبير الفائدة سماه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ، وهو كتاب عظيم جداً ذكر فيه ما يميز به بين ولي الله وولي الشيطان ، ومن لم يميز خدعه أولياء الشيطان وغروه وصرفوه عن دين الله تبارك وتعالى.

قال: ((**يكفي في هذا آية في سورة آل عمران وهي قوله تعالى{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران:٣١] الآية، وآية في سورة المائدة، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ**

مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة:٥٤] ، وآية في سورة يونس وهي قول الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:٦٢-٦٣])) ؛ يقول رحمه الله: يكفي أن تعرف الأولياء حقّاً وصدقاً من خلال هذه الآيات الثلاث فقط؛ ففيها كفاية لك في معرفة من هو الولي، وما هي علاماته.

فالعلامة الأولى: في قوله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} العلامة الأولى: الاتباع؛ اتباع النبيّ صلى الله عليه و سلم، ولقد كان بعض أهل العلم يسمّون هذه الآية «آية المحنة» ؛ أي أن من أراد أن يمتحن نفسه في صدق وقوّة محبّته لرسول الله صلى الله عليه و سلم وقبل ذلك محبّته لربّ العالمين ؛ فلينظر أو ليقِس ذلك على ضوء الاتباع الذي عنده، فإنه كلما كان أعظم اتباعاً وتمسّكاً بهدي الرسول صلى الله عليه و سلم فإنّ هذه أمارة على صدق المحبة، وكلما ضعُف فيه الاتباع فهذا أمارة على ضعفها، فكيف يكون وليّاً وهو لا يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام؟!

في بعض البلدان يجلس من يُزعم ويُدَّعي أنه ولي متكئاً على سارية في المسجد وتقام الصلاة ويصلي الناس وهو متكئ ما يصلي معهم! أين الولاية؟ أين الولاية بدون الصلاة؟ أو لا يكون أيضاً في المسجد يكون في الشارع جالساً في مكان وتقام الصلاة وينادى لها ولا يقوم يصلي! ويُدَّعي أنه ولي من أولياء الله! أين الصلاة التي فرضها الله على عباده؟ يقول أحد الأشخاص: مررتُ ببلدٍ ما على مكان وإذا برجل كلّ ما مررت جالس ما يقوم وليس به علّة ، جالس في مكان لا يقوم حتى أوقات الصلوات! فسألتُ عنه فقلت: من هذا؟ قالوا: سبحان الله ما تعرفه! هذا وليٌّ من أولياء الله، كلّ الناس يشهدون له بالولاية! هذا نذر أن لا يقوم من هذا المكان أبداً ، فقط يجلس في هذا المكان يصلي على النبيّ صلى الله عليه و سلم . الصلاة المفروضة التي افترضها الله على عباده وأمر بها ودعا إلى إقامتها في المساجد تُترك ، ويجلس في هذا المكان لا يقوم منه! أين الولاية بدون الاتباع؟! يغتر العوام عندما تؤتى لهم بمثل هذه الحكايات، يغتر العوام ويظن فعلاً أن هذا من أولياء الله. فولي الله المتبع ، علامته الاتباع ، وأعظم ما يكون فيه فعل الفرائض ، إذا ضيّع الفرائض ليس من أولياء الله ، لا تحتاج هذه إلى مفاصلة ، واضحة ؛ من ضيّع الفرائض فهو لما سواها أضيع، فالولاية لابد فيها من فعل الفرائض.

ولهذا قال العلماء: الولاية درجتان، أولياء الله على درجتين، بُيِّنت الدّرجتان في قوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى في الحديث القدسي: ((من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنّوافل حتّى أحبه)) ، فالأولياء على درجتين:

١. درجة فعل الفرائض؛ الذي يحافظ على الفرائض ويترك المحرمات هذا من أولياء الله ، وهي درجة في الولاية.

٢. أعلى منها درجةً : من يفعل الفرائض ويترك المحرمات وينافس في فعل الرغائب والمستحبات. وهذا معنى قوله: ((ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنّوافل حتّى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يمشي عليها. ولئن سألني لأعطينّه، ولأن استعاذني لأعيذنه))

هذه علامته يفعل الفرائض. أما شخص يجلس ولا يصلي، ثم يقول من حوله: هذا ما تعرفه! هذا ولي من أولياء الله، ثم يقولون أيضاً: لو كان عندك مشكلة اجلس عنده بدون ما تكلمه وهو يعرف مشكلتك، وهو يلقي في قلبك الدّواء لها، هذا ولي! العوام مساكين يُخدعون بمثل هذا الكلام ، ثم إذا قيل للعوام: فلان جرّب وفلان جرّب وفلانة جرّبت ومثل هذه السوالف لا تسأل عن ركضهم على مثل هذا زرافات ووحداناً، وهذا الضياع . وأصبحتْ المقاييس في الولاية مثل هذه المقاييس الفاسدة، أما المقاييس التي في الكتاب والسنة لا تجدهم يعرّجون عليها ولا يقفون عندها.

فإذاً علامة الولي الاتباع والاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام وبسنته، ومن أعظم ما يكون في ذلك الصلاة. كان بعض المتقدمين إذا أراد أن يذهب إلى مكان ليتلقّى العلم عن شخص يذهب وينظر في صلاته ؛ إذا وجده من أهلها والمحافظين عليها اطمأنّ لعلمه ، وإلا إن كان مضيّعاً للصلاة فهو لما سواها أضيع، ولا حظَّ في الإسلام لمن ضيّع الصّلاة، قال بعض السلف: «من أراد أن يعرف وزن الإسلام عنده فلينظر إلى وزن الصلاة» ؛ الصلاة ميزان لإسلام الشخص ، إذا كان شخص لا يصلي ولا يشهد الصلاة مع الجماعة هذا ولي من أولياء الشيطان، يجلس في قارعة الطريق وليس به علة ولم يمنعه مرض ولم يمنعه عذر إلاّ مثل هذه الدعاوى الباطلة هذا ليس من أولياء الله. والنبيّ صلى الله عليه و سلم في آخر حياته في مرضه كشف السِّتر ورأى الصحابة صفوفاً يؤمّهم أبو بكر الصّديق ﷺ فتهلّل وجهه فرحاً عليه الصلاة والسلام من هذا المنظر العظيم ؛ تهلل وجهه والناس يراهم صفوف يصلون في المسجد خلف خير أصحابه أبو بكر ﷺ ، هذه الولاية، الولاية ، الولاية في الصلاة في عبادة الله واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام هذه علامة واضحة بُيّنتْ في القرآن لا تحتاج إلى بيان، لكن مع ذلك الأمر التبس على كثير من العوام والجهّال، وأصبح بعض العوام لا ينظر إلى هذه العلامة ليقيس وإنما ينظر إلى طول العمامة ، لا ينظر إلى هذه العلامة وإنما ينظر في معرفة الولاية إلى طول العمامة أو الزي أو الشكل، وأصبح بعضهم الولاية نوع من اللباس ونوع من الزي معين ونوع من الحركات معينة تُفعل إذا وُجدت أصبحت مقياساً ، {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } هذه لا تقاس بها، هذا الميزان الواضح لا يقاس به ولا يميز من خلاله من هم أولياء الله.

ثم كذلك الآية الثانية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } [المائدة:٥٤] ذكر لهم أربع علامات:

١. أذلّة على المؤمنين ؛ يعني في قلوبهم رحمة للمؤمنين ، ومحبّة للخير لهم ، ونصح ، ودعاء ، وتعاون معهم على الخير.

٢. أعزّة على الكافرين ؛ قلوبهم فيها عزّة ومنعة، وفيها أيضاً بغضٌ وكراهية للكفاّر وأعداء دين الله تبارك وتعالى.

٣ . وفيهم أيضاً الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ونصرة دينه.

٤. وفيهم أنهم لا يخافون في الله لومة لائم في بيان الحقّ وإيضاحه والدعوة إليه ونشره.

مثل هذه إذا وجدت هذه علامات على أن للإنسان من أولياء الله تبارك وتعالى.

ثم ختم بعلامة أخيرة في قوله تبارك وتعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }[يونس:٦٢] . ثم ذكر علامتهم تبارك وتعالى قال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:٦٣] ؛ العلماء رحمهم الله يقولون: إذا جُمت بين الإيمان والتقوى في آية واحدة أو في نص واحد ؛ يكون الإيمان يتناول العقائد الصحيحة وفعل الأوامر، والتقوى: البعد عن العقائد الزّائفة الباطلة وترك النواهي، فالإيمان: اعتقاد الأمر الصحيح والعمل بالطاعات التي دل عليها الكتاب والسنة، والتّقوى: البعد عن العقائد الباطلة واتقاؤها ، وأيضاً اتقاء المحرمات وما نهى الله عنه تبارك وتعالى ويأتي في مقدّمة ذلك الشرك بالله.

فذكر لهم علامتان: الإيمان والتقوى؛ ولهذا من كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً، والولاية تكون بالإيمان والتقوى ؛ هذا أمر واضح في كتاب الله، وأصبح من يفعل نقيض هذين الأمرين تُدَّعى له الولاية!

في باب فعل الأوامر، تجد في أقوامٍ علامتهم عند أصحابهم ترك الأوامر ويُعرفون عند أصحابهم بماذا ؟ بالأولياء ، تجده لا يصلي تجده أيضاً لا يطوف ويعلن ذلك يقول: الأولياء لا يطوفون بالبيت، البيت هو الذي يطوف بهم ، وهذا ليس كلاماً يقال، هذا كلام موجود في كتبهم ويُنشر، يقول: الولي هو الذي يطوف به البيت، ليس هو الذي يذهب إلى البيت يطوف به. وقد حُدّثتُ عن شخص أنه جاء ووصل إلى مكّة ووقف ما طاف وقال: لا، الأولياء هم الذين يطوف بهم البيت!!. وإمام الأولياء عليه الصلاة والسلام كم مرّة طاف بالبيت؟ حجّ واعتمر أربع مرّات، طاف بالبيت طوافاً متكرّراً، وهو إمام الأولياء عليه الصلاة والسلام ، ثم يدَّعي هؤلاء أنّ الولي لا يطوف بالبيت وأحقيته ومكانته أن البيت بطوف به ، حتى إنه في أحد كتب الفقه عُقدت مسألة في كتاب الصلاة مبنية على خرافة هؤلاء، عُقدت مسألة في كتاب الصلاة: إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس؟؟ هذه مسألة فقهية!! قال صاحب الكتاب: اختلف أهل العلم في هذه المسألة على قولين: قال بعض العلماء يصلُّون إلى الكعبة باعتبار الأصل وباعتبار أن الناس لا يستطيعون معرفة أين ذهبت الكعبة ، إذا حضر وقت الصلاة وفُرض أن الكعبة ذهبت إلى الهند إيش يعلم الناس أن الكعبة في الهند أو في إفريقيا ، فقال: يصلون إلى مكان الكعبة باعتبار الأصل ولعدم التمكن ؛ هذا قول . القول الآخر: لا، لابد أن يتحرّى الناس أين ذهبت الكعبة ويستقبلونها. هذا بُحث في

أحد الكتب!! وفي كتب تروّج عند العوام وفيها مثل هذه الخرافات وتنشر على أنها علامة للأولياء، لا صلاة ولا طواف ولا عبادة ويُدّعي فيه أنه وليٌّ من أولياء الله!! وهو وليٌّ للشيطان بلا شك ولاريب ، إي واللهِ وليٌّ للشيطان ليس وليّاً للرحمن ، {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ}[الأنفال:٣٤]، لا تكون الولاية بمثل هذا الضياع والباطل.

وأيضاً جانب التقوى لا تراها فيه، وأنا أتحدّث عن غلاة هؤلاء ، لا تراها فيهم، تراه يمارس بعض المحرمات باسم الولاية، يمارس بعض المحرمات الصريحة الواضحة البينة كقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء:٣٢] . يمارسه باسم الولاية. وقد قرأت في بعض الكتب القديمة لهؤلاء وحدّثني بعض المهتدين من هؤلاء بما أذكره لكم الآن، أن المريد يأتي إلى شيخ الطريقة المزعوم أنه ولي، يأتي المريد إليه في ليلة زواجه، ويأتي بزوجته بكراً إلى شيخه ويتوسّل إليه ويتذلّل بين يديه أن يتكرّم بافتضاض بكارتها ، ثم يخلو بها ويفتض بكارتها من أجل البركة ، ثم تخرج من عنده ويقبّل هذا المريد قدمي شيخه شكراً له على هذا الإحسان، وربما أعطاه أيضاً جزيل مالٍ على إحسانه له. هذا يمارس باسم الولاية، زنا والعياذ بالله وفواحش وأمور منكرة تمارس باسم الولاية! هؤلاء أولياء الشيطان . إي والله . ليسوا أولياء الله {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس:٦٢ – ٦٣] ، «من كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً»، فلما اختلطت الأمور على الناس أصبحت هذه العلامة غير واضحة عندهم، وأصبحت العلامة عندهم خرافات بُثّت وضلالات نُشرتْ بين الناس وأصبحتْ هي المقياس.

ولهذا قال المصنف: ((**ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من أهل العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسول**)) ؛ يعني أصبحت العلامة للولي ما هي؟ ترك الاتباع، ترك الدين، ترك الشرع، هذه العلامة ، مثل ما مثّلتُ لكم ببعض الأمثلة.

((**ومن تبعهم فليس منهم**)) يعني من تبع الأنبياء وسار على منهاجهم ليس منهم ، لأنه لا يكون منهم إلا بترك الاتباع هكذا فهمت الأمور .

((**ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم**)) هذه المقاييس التي في الآية تركها هي الولاية أصبحت ، والعمل بها ليس من الولاية في شيء، قُلبت الأمور؛ ولهذا دعا المصنّف بهذه الدّعوة قال: ((**يا ربّنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء**)).

قال رحمه الله تعالى :

الأصل السادس: ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة ، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة؛ وهي: أنّ القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق. والمجتهد هو الموصوف بكذا

وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر . فإن لم يكن الإنسان كذلك فليُعرِض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمها. فسبحان الله وبحمده! كم بيّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [غافر:٥٧] { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}[يس:٧-١١] .آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

****

قال رحمه الله : ((**ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة**)) الشيطان وضع لأهل الأهواء وأرباب الباطل شبهة صدّتهم عن كتاب الله وعن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأصبح هؤلاء يروّجونها بين الناس، وكانت النتيجة إعراض هؤلاء في التلقي والأخذ عن الكتاب والسنة معرضين عن الكتاب والسنة، وأصبحوا يأخذون عن دعاة الباطل وما يوجّههم إليه أئمّة الضّلال ، وضع لهم شبهة، شبهة خبيثة قال: ((أولاً: مقدمة أولى: «لا يقرأ القرآن ولا يتدبّر القرآن إلا مجتهد». الأمر الثاني: «لا يكون الإنسان مجتهداً إلا بأن يكون موصوفاً بكذا وكذا وكذا» صفات كثيرة قال المصنِّف: ((لا تكاد توجد تامة في أبي بكر وعمر)).

وأمر آخر يقولون: «لا يوجد في زماننا مجتهدين». هذه المقدمات تخلص منها بنتيجة ما هي؟ قول الله عز وجل {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}[النساء:٨٢] أُلغي بهذه المقدمات، وأصبحوا لا يتدبّرون القرآن، ويقرؤون القرآن فقط للبركة بدون محاولة لفهمه، بل بعضهم ينبّه يقول: انتبه وأنت تقرأ لا تحاول أن تفهم، اقرأ هكذا فقط وإياك أن تفهم شيئاً منه؛ لأنّك إن فهمت شيئاً من القرآن على دينك خطر، يُخشى على دينك أن ينحرف! لكن هذا كتاب تقرأه للبركة تتبرّك بقراءته، حاول أن تقرأ مثل قراءة الأعجمي للقرآن، أما أن تفهم شيئاً منه هذا يخشى على دينك منه، بل بعضهم صرّح بأن القرآن فيه ظواهر كفرية ، أشياء تظهر منه كفرية يُخشى على الناس منها، لكن لا بد لنا من قراءته للتبرك ، لأنه كتاب مطالبون بقراءته فنقرأه للتبرك ، أما للفهم وللتدبر إياك وهذا احذر ؛ فيصبح من يقرأ القرآن منهم يقرأه لمجرّد التبرّك، وإذا قيل له: الله عز وجل نهى عن الشرك، والدليل قوله تعالى كذا، ونهى عن كذا والدليل قوله كذا. يقول: لا، لا تتكلّم في هذا، هذا للمجتهدين، هذا لأهل الاجتهاد.

والعلماء رحمهم الله يقولون: الذي جاء في القرآن وهو أمور كثيرة واضحة لكل أحد، لما يقول الله سبحانه وتعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ} [البقرة:١٨٥] هذه الكلمة واضحة أو غير واضحة؟ وإلا تحتاج إلى اجتهاد ومعرفة بالمقدمات التي ذكروها؟ واضحة شهر رمضان معروف عند كل أحد ، {أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة:١٨٥] نزول القرآن في رمضان أيضاً واضح، هناك معاني ودقائق واستنباطات لأهل الاجتهاد أما أمور واضحة ، من الذي لا يفهم قول الله تعالى {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا } [الإسراء:٣٢] أو تحتاج إلى مجتهد مطلق؟ من الذي لا يفهم قول الله تعالى: { وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } [الأنعام:٧٢] الأمر بإقامة الصلاة، {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء:١٠٣] ، {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ } [النور:٣٠] ، تحتاج إلى مجتهد مطلق حتى يُفهم ما غضّ البصر؟! {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} [النور:٣١] تحتاج إلى مجتهد مطلق حتى يفهم معنى غضّ البصر؟! هذه أمور واضحة، والله عز وجلّ خاطب الناس بلسان عربي معلوم مفهوم يعلمون معناه، ففي القرآن أمور كثيرة واضحة لكل من يقرأ القرآن ممن يفهم اللسان العربي، وهناك أمور تحتاج إلى ماذا { لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ } [النساء:٨٣] ، فيه دقائق ومسائل تحتاج إلى فقه واستنباط هذه للمجتهدين نعم . أما أن يهجر القرآن ويترك تدبّر القرآن، ويقال يقرأ القرآن بمجرد البركة هذه شبهة أردتْ بكثير من الناس ، وأصبحوا معرضين عن القرآن وعن دلالاته، منشغلين بالخرافة وبالأحاديث الموضوعة، وبالقصص الواهية، وبالحكايات وبالمنامات، وبينهم كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه و سلم إلا أنهم عنهما معرضون . نسأل الله العافية . .

فهذه شبهة وضعها الشيطان لهم وأثّرت في كثير منهم، وضعها الشيطان لهم من أجل ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وإذا تُرك أخذ الدين والتدبّر للقرآن الكريم وسنة النبيّ صلى الله عليه و سلم من أين يأخذ الناس دينهم ؟ إذا اقتنع الناس بهذه الشبهة من أين يُؤخذ الدين؟ من العقليات ، من التجارب ، من الخرافات؛ وهذا عين الضّياع.

ماهي الشبهة؟ قال: ((**هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق**))، هذه مقدمة أولى.

المقدمة الثانية: ((**والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلّها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر**)).

النتيجة ماهي؟ قول الله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} يلغى تماماً، بل إنّ هذه الآية {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} داخلة تحت القاعدة هذه. {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} يقول لك: القرآن لا يفهمه إلا مجتهد ، ولا يوجد في زماننا مجتهدين، حتى هذه الآية لا تقرأها علينا، ولا تطالبنا بفهمها لأن القرآن فهمه من خصائص المجتهدين! تحت هذه الشّبهة صُدَّ النّاسُ عن دين الله.

قول الله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]؛

هل هذا على بابه يُرد إلى الله والرسول تحت هذه الشبهة؟ قال العلماء: الرد إلى الله: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام: الرد إلى سنته، فهل أصبح الرّد إليهما على ضوء هذه الشبهة؟! الجواب: لا، لا يُرد إلى الكتاب ولا يرد إلى السنة لأن هذا لا يكون إلا على يد مجتهد مطلق، ويقولون: لا يوجد في زماننا المجتهد المطلق ، فإذاً لاُ يرد إلى الكتاب والسنة.

قال: ((**فإن لم يكن الإنسان كذلك**)) يعني بتلك الأوصاف للمجتهد ((**فليعرِض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه**)) هكذا يقولون، وبعضهم بمثل هذه الألفاظ يهزّ العوام ويخلخل ثوابتهم ؛ فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه ألا تتدبر القرآن ، أنت هل عندك صفات المجتهدين ؟ ما يجوز لك أن تتدبّر ، فقط اقرأ القرآن للبركة ، يصدِّق العامي ويصبح لا يقرأ القرآن إلا لمجرد التبرك . والآيات التي فيها النهي عن الشرك النهي عن الزنا كلّها لا يأخذ منها ولا يفهم معناها ولا يتلقى عنها بناء على هذه الشبهة.

قال: ((**ومن طلب**)) يعني هذا كلامهم، ((**ومن طلب الهدى منهما**)) أي من الكتاب والسنة ((**فهو إما زنديق**)) لأنه خاطر بدينه، ما هي المخاطرة بالدين؟ أن يفهم الدين من ظواهر الكتاب والسنة، هذا إما زنديق. ((**وإما مجنون**)) لماذا مجنون؟ لأجل صعوبة فهمهما، فهذا مجنون لأنه يحاول أن يفهم من القرآن ما لا يمكن أنُ يفهم من القرآن ؛ فهذا فيه نوع من الجنون أو أنه إنسان زنديق مارق من الدين ، فمثل هذا الكلام عندما يروّج على العوام كم يفعل بهم! وكم يبعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيّهم صلوات الله وسلامه عليه! .

والشيخ الإمام الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» عند قول الله تعالى في سورة مُحَّد {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤)} عند هذه الآية وقف وقفة مطوّلة عند هذا الموضوع، وأورد هذه الشبهة وأجاب عليها إجابة موسّعة ، وأشار إلى بعض من قالها ، وتوسّع توسّعاً طويلاً في الإجابة عنها ؛ حتى إنها يعني تصلح أن تكون رسالة مفردة من المعاني العظيمة والتوسعات والتقريرات المفيدة التي ذكرها عند قوله تعالى{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤)} من تفسيره أضواء البيان .

ثم ختم بتسبيح الله وحمده ؛ تسبيحه: تنزيهه تبارك وتعالى عن مثل هذه الافتراءات ، وعن مثل هذا القول الباطل في كلامه وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام . وحمداً : على نعمة التوفيق للخير والهداية له والسلامة من هذه الشرور.

قال: ((**فسبحان الله وبحمده كم بُيّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حدّ الضروريات العامة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**)) ؛ يقول: هذه الشبهة زيفُها مكشوف تماما واضح في القرآن والسنة، وكم بُيّن في القرآن والسنة من الدّلائل على فساد هذا الكلام وبطلان هذا التقرير الفاسد ، بُيِّن بياناً إلى أن أصبح في حدّ الضروريات المعلومة من الدّين بالضّرورة، ولكن

استطاع الشيطان بمكره ومصائده أن يقنع أناساً بها، فأخذوا يروّجونها ويصدّون بها الناس عن كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم ختم بهذه الآيات الكريمة {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} [يس:٨-١١] قال ((**آخره**)) أي آخر هذا الكتاب أو هذه الرسالة.